دفاتر التاريخ ٢

كريستوفر كودويل

الناس والطبيعة

دراسة في التاريخ البرجوازي



سلسلة العلوم الاجتماعية

دار الفارابي

سلسلة العلوم الاجتماعية

دفاتر التاريخ

الناس والطبيعة

دراسة في التاريخ البرجوازي

ترجمة فاضل لقمان

دار الفارابي - بيروت

١٩٧٩

دار الفارابي ـ بيروت ـ ص.ب. ٣١٨١

الطبعة الاولى تشرين الثاني ١٩٧٩

الناس والطبيعة
دراسة في التاريخ البرجوازي

خلال دراستنا للثقافة البرجوازية ، كنا على الدوام ، عند مرحلة معينة من تحليلنا ، نصل الى نظرة كونية هي من نتاج الاقتصاد البرجوازي ، تعطي شكلا مميزا لكل صيغة من صيغها الايديولوجية · انها ليست خطأ بمعنى انه يمكن عزلها ، كهفوة منفصلة ، عن ميدان الثقافة ، يتم الكشف عنها من خلال التحليل فقط كقوة غير مرئية ، ليست واضحة في صياغات تلك الثقافة ، بل تعمل كقوة ضغط من الخارج · انها تسبغ على تلك الثقافة تشويها مميزا لا يكون مرئيا بالنسبة لاولئك الذين ما زالوا يعيشون في اطار ذلك الاقتصاد · غير ان هذه النظرة الكلية البرجوازية ليست ، على اي حال ، وعيا ثابتا ، بل هي ، مثلها مثل المجتمع الذي هي نتاجه ، تتبدل ، وقد تبدو حتى نقيضها ـ مثلما للصورة الفوتوغرافية نسختا المسودة والمبيضة ، الايجابية والسلبية ، ومع ذلك تبقى النظرة المجزوءة ذاتها الى الواقع ·

ان هذه النظرة الكونية هي نتاج مجتمع مقسوم الى طبقات ، كما هي حال جميع الحضارات ، التي امتلكت ثقافات عالية التطور في السابق · ان جوهر كل المجتمعات الطبقية ، هو ان السلطة الحاكمة تمارسها الاقلية · وسيرورة العملية الاجتماعية لا تتوجه بضرورات ومتطلبات هذه العملية فقط

هذه الضرورات والمتطلبات التي لم تدخل في وعي المجتمع بشكل كامل بعد ـ بل وبارادات الحكام الافراد ايضا · وهكذا فان الارادة الفردية تبدو وكأنها هي وحدها الفاعلة المبدعة · ففي مثل هذه المجتمعات يبدو هدف المجتمع كله ـ سعي الانسان الى ان يتحرر من قوى الطبيعة ـ وكأنه يتحقق من خلال الطاعة السلبية للمحكومين ازاء ارادة الحاكم ، الذي تقوده اهواؤه ورغباته الفردية · فهكذا تبدو الامور للحاكمين والمحكومين ، غير ان الطبقتين كليهما ، هما من نتاج تقسيم العمل ، تستمدان ادوارهما ، لا من الارادة ، بل من المكانة التي تشغلها كل منهما في الانتاج الاجتماعي ·

مثل عملية تقسيم العمل هذه ، التي تنطوي على وجود طبقة تعمل بسلبية وبشكل أعمى ، وطبقة اخرى توجه ذلك العمل حسب وعيها لضرورات الحالة ومستلزماتها ، هي تقدم ونقطة ضعف في الوقت نفسه ، بالمقارنة مع الشيوعية البدائية التي سادت أبسط المجتمعات ، التي كان كل عضو للعشيرة او القبيلة فيها يعمل بدون اي تمييز او فرق · انها تجسد تقدما ، لانها تنطوي على زيادة حدة الوعي في قطب الطبقة الحاكمة وعلى مزيد من الانتاج المكثف للثروة الاجتماعية · ولكنها مكمن ضعف في الوقت نفسه ، لانها تؤدي الى قتل الوعي في قطب الطبقة المحكومة ، والى خلق هوة بين الاستمتاع الواعي للطبقة الحاكمة من جهة ، والكدح الاعمى للطبقة المحكومة من الجهة الثانية · ان ذلك يجعل من الممكن بروز عدم مساواة دائمة في المكانة لان الطبقة الحاكمة تستطيع ، بفضل توجيه عمل المستغلين (بفتح الغين) ، تأمين تدفق ما ينتج عن ذلك العمل الى حياتها هي ، تاركة للمستغلين الحد الادنى الضروري ، الذي يكفل وجودهم ·

وهكذا نرى ان اللامساواة في الوعي ، هي انعكاس للامساواة المادية · الامور لا تقف عند حد تحول التفكير الى

امتياز يخص المنتسبين الى الطبقة المستغلة (بكسر الغين) وحدهم ، بل ان التفكير نفسه يغدو ، تدريجيا ، منفصلا عن العمل والفعل ، ويكتسب امتيازا اجتماعيا الى الدرجة التي تجعله ينفصل عن الفعل · ذلك لان هذا الانفصال بالذات ، هو الذي انجب مكانته المتفوقة كعلامة وسمة مميزة للطبقة الحاكمة ، « الخادعة » ، او الادارية · ان هذا الانفصال معاد للشيء الاجتماعي ، لانه يعوق الفكر ، ويعطل الفعل ، ومع ذلك يبقى من انتاج قوى اجتماعية معينة ·

ولا يتم توجيه اعمال المحكومين من جانب الطبقة الحاكمة، بالطبع ، كنتيجة لانتخاب حر يقترع فيه اولئك المحكومون لصالح اعضاء الطبقة الحاكمة · فلو كانت تلك هي الحالة لما كان هؤلاء طبقة حاكمة ، بل اجهزة تابعة للمجتمع مثل كلاب الحراسة المرافقة لقطعان الحيوانات التي تعيش على الرعي · ان توجيه اولئك يكون قسريا في حقيقة الامر ، ومفروضا بالقوة من خلال اشكال المجتمع وصيغه · فالطبقة يتم خلقها عن طريق **حق** معين ، عن طريق **شكل** شرعي للملكية ، تفرضه الاجهزة الواعية في المجتمع ضد الطبقة المستغلة (بفتح الغين) · وهذا الحق لا يمكن ان يكون حقا لشيء لا مضمون له ، بل ينبغي له ان يكون حق ملكية لوسائل الانتاج · ان وسائل الانتاج في سائر المجتمعات لا بد من تشغيلها من قبل الناس · ففي المجتمعات البدائية تكاد وسائل الانتاج لا تتعدى حدود الارض والبشر ، ولا شيء غيرهما ذو اهمية اقتصادية ، مما يجعل الحق الذي يكون اساس الطبقة الحاكمة ، في تلك المجتمعات ، هو حق امتلاك الارض والبشر · وفي الحضارات اللاحقة ايضا ، كان حق الملكية الفردي لكل وسائل الانتاج ، التي لا يستطيع الناس ان يعيشوا بدونها ، هو الاساس · ان ملكية هذه الوسائل ، المدعمة قسريا بالمجتمع ، هي التي تضمن ان تقوم

الطبقة المالكة بحكم الطبقة غير المالكة ، حتى في حال غياب حق ملكية الانسان · (حق ان يملك الانسان انسانا اخر)·

ان الذي يكون الطبقة هو شكل ملكيتها ، كما ان حقوق الطبقة الحاكمة ، المبينة في قوانينها ، وتقاليدها وديانتها ، هي الاخرى تعبير عن السمات الاساسية للاقتصاد· فسيرورة العمل هي عامة في كل المجتمعات · اما الانقسام الى مستغلين ومستغلين (بفتح الغين وكسره) فهو سمة تتميز بها المجتمعات الطبقية ، في حين ان الشكل الذي يتخذه هذا الانقسام ، هو شكل يخص كل مجتمع طبقي بعينه · ان المجتمعات العبودية تنقسم ، بشكل عام ، الى الاحرار والعبيد ، والمجتمعات الاقطاعية الى اللوردات الاقطاعيين والاقنان ، والمجتمعات البرجوازية المتطورة الى رأسماليين وعمال « احرار » مضطرين الى ان ينزلوا بقوة عملهم الى السوق ، لانهم محرومون من ملكية جميع وسائل الانتاج ·

ان ايديولوجية كل هذه الحضارات ، هي ايديولوجية الطبقة الحاكمة ، لان تقسيم العمل بين طبقة من المفكرين ، وظيفيا ، وطبقة من العاملين ، وظيفيا ايضا ، تؤدي الى تجمع كل الوعي الاجتماعي في قطب الطبقة الحاكمة ، طالما بقي التقسيم مستمرا · ومن هنا ، حتى الثقافة الاكثر تطورا تعكس في قمتها وجهة نظر الطبقة الحاكمة ـ طموحاتها وتقلباتها ونقاط ضعفها · وفي الثورة ، عندما تنتقل السلطة من طبقة الى اخرى ، تحدث ثورة ايديولوجية مقابلة ، رغم ان ذلك لا يمكن ان يحدث الا حينما تكون شروط سيرورة العمل قد طورت وعيا مضادا لدى الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ·

من الناحية التاريخية يبرز التفكير كشريك للفعل ، ويكون الطرفان بحوزة شخص واحد بعينه · وعملية الفصل بينهما ،

من خلال تقسيم العمل الطبقي في المجتمع ، يؤدي بصورة طبيعية الى عدم كفاية الفعل من جهة ، واهتراء الفكر وبؤسه من جهة ثانية ، بالمقابل ، بشكل يكون معه انهيار الثقافة مصهورا بالتالي بتراجع مادي من ناحية ، وافلاس ايديولوجي من ناحية ثانية ٠

ان تقسيم العمل عنصر تقدمي في تطور المجتمع ، وما من احد الا ويحلم بأن يتولى الافراد الموهوبون فطريا ب « الادمغة » ادوارا توجيهية ويتولى الاخرون الموهوبون بالفعل القيام بأدوار فعالة ونشيطة ، ان مثل هذا التقسيم للعمل ، بحد ذاته ، شيء مرغوب فيه ٠ وعندئذ يكون كل من المفكر والفاعل جزءا من العملية الاجتماعية ، وتكون هناك وحدة في العمل الاجتماعي مثلما هي الحال عندما يقوم المهندس المعماري برسم الخطط ، ورئيس الورشة بالتوجيه ، والعمال بالبناء لدى انجاز عملية بناء المسكن ٠ غير ان وعي المجتمع الطبقي لا ينبثق بوصفه وعيا لهذه السيرورة العملية المحددة ، اذ انه عندئذ لن تكون هناك طبقة تحكم على اساس حق الملكية . بل سيكون هناك اداريون او اجهزة ادارية مدفوعة الى حيث هي في الاعلى من قبل المجتمع ، وفقا لضرورات سيرورة العمل ٠ ان هذا الوعي يبرز بعيدا عن العمل وعن المجتمع ، بوصفه حقا فطريا كامنا في الفرد ام في طبيعة الاشياء . فلو برز هذا الحق من ضرورات العملية الاجتماعية لما استوجب الحماية الرسمية ، ان بروزه بغير هذا الشكل ، هو الذي استلزم ضمانه وحمايته بالقوانين . بالصيغ المرئية للمجتمع التي ينبغي لها ، لهذا السبب ، ان تكون صيغا طبقية ٠ وقد ينتقل الحق بالوراثة ، بالولادة او الحصول اللاحق على مكانة تجلب معها ذلك الحق ، او عبر نوع من انواع النقل الرسمي بين الافراد ٠ ان جميع صيغ او اشكال المجتمع موجهة نحو الدفاع عن هذا الحق ٠

وتأسيسا على ما سبق فاننا لا نلتقي في تلك المجتمعات . بأناس يبرزون كمفكرين استنادا الى موافقة المجتمع وبصورة طبيعية ، بل انه يجري اقرار الوعي كحق لطبقة بعينها ، ولا يمكن اكتسابه وبشق النفس الا من قبل عدد قليل من الطبقات الاخرى ، يتم عندئذ امتصاصهم من قبل الطبقة الحاكمة . وهذا التدعيم للحقوق هو الذي ينتج التشويه المتميز لايديولوجية تلك الطبقة ، وهذه الايديولوجية الطبقية هي نفسها ، كما رأينا ، ايديولوجية كل ثقافة ذلك المجتمع . جميع الايديولوجيات المماثلة لهذه الطبقة الحاكمة او تلك تشترك في هذه الصفة : (تشترك في انها ترى الفكر والوعي والارادة كامتيازاتطبقية لها وحدها) ، لا بوصفها محددة من قبل الفعل ، او من قبل الواقع الخارجي . الذي ينطلق الفكر لمعرفته وتغييره ، بل كشيء فطري ـ وحر بالمعنى الذي يعتبرون انفسهم من خلاله احرارا . يغدو الوعي امتيازا لا يتم خلقه من خلال الفعل والنشاط ، بل « يعطى » بالولادة ام بالصدفة . انه لوهم لا يمكن متابعته دون كشف تناقضاته . انه ذلك الوهم العام والمشترك بالنسبة لكل الثقافات الطبقية ، وبالتالي بالنسبة لكل الايديولوجيات التي انتجها التاريخ حتى الان عدا المادية الديالكتيكية .

في المجتمع البرجوازي يكون التأثير المشوه للوهم اقل ما يكون في الفيزياء ، الذي هو بالتالي اول علم بزغ نجمه في ذلك المجتمع ، وسيكون نجمه اخر النجوم الآفلة فيه . اما في العلاقات الاجتماعية فسيكون التشويه على اشده بالضرورة . وفي علم المجتمع والتاريخ ، وفي الواقع ، يستطيع المرء ان يطرح السؤال التالي عن التاريخ البرجوازي : هل تمت ولادة التاريخ البرجوازي ؟ لم يبد التاريخ كما تحدثت عنه الثقافة البرجوازية الا اضعف نقاط الشبه والتماثل بالانضباط العلمي . وهذا ينطبق بشكل حاد جدا على اولئك المؤرخين الذين يعتبرون انفسهم علميين وموضوعيين ، حقيقة .

لا شك ان خلق علم التاريخ ينطوي على اصدار الحكم باعدام الثقافة البرجوازية · وهذا هو السبب الكامن وراء توصل المؤرخين البرجوازيين ، المرة بعد الاخرى ، الى استنتاج يقول : بأن التاريخ ليس ، ولا يمكن ان يكون ، علما · لقد اصابوا كبد الحقيقة من جهة واحدة . هي ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما اذا بقي في دائرة الثقافة البرجوازية ·

يكشف الاقتصاد الرأسمالي ، في اثناء تطويره لتناقضاته. على طرفي نقيض ، من جهة عن تنظيم العمل في المصنع . والتروست ، والمؤسسة الاحتكارية ، ومن جهة اخرى عن افتقاد التنظيم في العمل في ظل جو التنافس السائد بين هذه الوحدات · فتطور الاحتكار وزيادة تكرر ظواهر الاندماج لا يساعدان بأي شكل من الاشكال ، على تخفيف حدة ازمة الانتقال الى عالم صناعي كامل التنظيم · ان مثل هذا الانتقال يتطلب افول نجم الملكية الرأسمالية ونهاية استغلال العمل ، الا ان زيادة التنظيم داخل اطار الاحتكار ينتج مزيدا من التنافس فيما بين الاحتكارات · فظاهرات الاندماج التي يشهدها الاقتصاد الرأسمالي تؤدي الى صراعات حادة وعنيفة من جانب رأس المال الراكض وراء الارباح للعثور على الارباح خارج الاسواق « الموجودة » · وهكذا فان « عملية تحقيق الاستقرار » تنجب عدم استقرار يتصف بالحدة . وعملية تأميم سوق ما من قبل هذا الاحتكار ام ذاك تؤدي الى تدفق الارباح التي تكون ، لان السوق محدودة ذاتيا بحدود الاحتكار ، غير قابلة لاستخدامها فيها ، مما يفرض تصديرها الى اسواق اشد ضعفا كعامل تمزيق جديد · واللاتنظيم الخارجي هذا الذي يكتسب مزيدا من الحدة مع زيادة التنظيم الداخلي طالما انه يحدث داخل حدود مقولات الاقتصاد البرجوازي ، واضح ومرئي تماما اليوم ، في تعاظم القومية والفاشية الاقتصاديتين ، والموجة الجديدة من الحروب الامبريالية التي هي قيد الاعداد ·

غير ان الظاهرة نفسها نراها في الايديولوجية البرجوازية · لقد حققنا نجاحا كبيرا في تنظيم العلوم او الاقسام البيولوجية والفيزيائية والبسيكولوجية والانتروبولوجية والهندسية والمعمارية والجمالية والتعليمية والاقتصادية واللغوية وما اليها ، غير ان هذه العلوم او الاقسام ليست فقط بعيدة عن تكوين نظرة شمولية متجانسة وموحدة عضويا ، بل ان زيادة تنظيمها الداخلي بالذات تؤدي الى انعدام التنظيم في الثقافة ككل · ونتيجة لتطور نظمها الداخلية المكونة تتعرض الثقافة البرجوازية للتمزق الشديد ـ المصير الاسود نفسه الذي يواجهه الاقتصاد الرأسمالي وبالسبب ذاته كليا ·

وبالطبع يكمن الحل الصحيح الوحيد لتناقضات الاقتصاد الرأسمالي في ازالة ذلك العامل الذييتسبب في انتاج اللاتنظيم الخارجي رغم توفر التنظيم الداخلي · فما ان ينمو اللاتنظيم الخارجي بوتيرة اسرع من نمو التنظيم الداخلي (وهذه هي الحالة السائدة منذ عام ١٩٠٠) حتى يتلقى الاقتصاد البرجوازي حكمه بالاعدام ، ولا يبقى موجودا الا بانتظار اليد التي أهلها التاريخ لان تنفذ ذلك الحكم بالاعدام ، وهي اليد البروليتارية في هذه الحالة · وهذا الحكم ينطوي على المشركة الكاملة Socialisation للانتاج على قيام المجتمع بانفاذ قوانين حركته وعمله هو ، تلك الحركة التي يغدو المجتمع مؤهلا لان ينظم نفسه من خلال وعيه لها ·

لقد اصبح الاقتصاد الرأسمالي واعيا للبيئة · فهو يعرف الضرورات التي ينطوي عليها جعل المادة تخضع له · وقد فعل ذلك موهوما بأن مثل هذه السيطرة وحدها تكفي لاجبار الطبيعة على الخضوع لارادة الانسان · غير ان معرفة الضرورات اللاانسانية ليست كافية لضمان دحر الطبيعة والحاق الهزيمة بها · ان الانسان جزء من الطبيعة ، وما

يتكون منه المجتمع ليس هو الانسان المجرد ، او التجريدي ، بل الناس الحقيقيون الذين يعيشون فعلا في أماكن محددة واوقات معينة ·وعملية الحاق الهزيمة بالطبيعة هي من صنع هؤلاء الناس وهم منظمون في المجتمع ، وتتوقف مسألة خضوع الطبيعة للـ « انسان » على مدى كون هذا التنظيم او هذه « الحضارة » حقيقة واقعة ، انها ـ اي الطبيعة ـ لا تميل ابدا لان تخضع لهذا « الانسان » او ذاك ، **كفرد** ، الا بمقدار ما يكون هدف ذلك الانسان الفرد جزءا من هدف الناس المنظمين ككل · ان ذلك ينطوي على التعاون · اذا كان عدد من الافراد يسعون الى تحقيق غايات متناقضة فان هذا نفسه تجسيد لانعدام التنظيم ، سيؤدي لا الى خضوع الطبيعة لارادة انسان بعينه (لان الاخرين ينفون هذا) ولا لمجموع الارادات (لان هذه الارادات متناقضة) بل الى نوع من الحل الوسط لا يعكس اية من الارادات ـ كأن يصل الى نتيجة غير مرغوب فيها مثل الحرب او الكساد ·

هذا الانسان ام ذاك لا يمسك بزمام الطبيعة من خلال معرفته بالقوانين الضرورية لصنع القبعات ، ام من خلال كونه مطلق الحرية في مملكة الفيزياء ، لان الطبيعة لا تخضع للانسان الفرد بل الناس المنظمين في المجتمع ، وهي لا تنفذ اية ارادة بعينها بل المحصلة التاريخية لجميع الارادات في غمرة العمل· لذا فان على الناس ان يعرفوا ، اضافة لضرورات « الطبيعة »، ضرورات التعاون والمحصلة التاريخية للافعال المنفذة اجتماعيا · ان هذه المعرفة جزء لا يتجزأ من التعاون في الفعل الاجتماعي ، لانه معروف ان هذه الافعال ام تلك ضرورية للوصول الى غاية محددة ، فلا بد من تولي القيام بتلك الافعال · ومن هنا فان مثل تلك المعرفة تنطوي على الاطاحة بالاقتصاد البرجوازي واستبداله باقتصاد شيوعي ·

غير ان الاقتصاد البرجوازي ليس متناغما ـ فالمجتمع

مجتمع برجوازي ، وذلك الانقسام الطبقي ، في حقيقة الامر ، هو الذي ينتج شكله المميز • هناك دوما طبقة ، ارادات افرادها تقيد المجتمع كله . هذه الطبقة التي يتم تحقيق ارادتها الفردية كمجموع في عملية قهر الطبيعة ، مهما كانت النتائج بالنسبة لباقي المجتمع • ان طبقة الارادات الظافرة ، الطبقة الحاكمة ، هذه تتضاءل وتصبح اكثر محدودية بالضرورة مع الاهتراء الذي يصيب الاقتصاد الرأسمالي • ومع تقدم الزمن تضيق مساحة الحرية في الاقتصاد الرأسمالي • غير أن ذلك لا يعني بأي حال قيام هذه الطبقة بالاخلاء السلمي لعروشهـــا لان حيازتها للحرية الاجتماعية هي ايضا ، رغم كونها حرية تصاب بالضيق كاجمالي ، لان الطبقة ذاتها تغدو مخففة ومائعة ، اكبر من حيث حجم الحرية **التي يتمتع بها كل رأس** • ذلــك يشكل اساسا للمزيد من الاغراء للنضال في سبيل الحفاظ على سلطتها بالمقدار الذي تزداد به سيطرة افرادها كأفراد على الانتاج الاجتماعي • غير ان القطب الاخر يشهد فـــي الوقت نفسه تجمع قوى المحرومين من الحرية •

كل هذا ينعكس في الوضع الراهن للثقافة • فنحن ، اذ نشهد تحللها وانعدام تنظيمها الواسعين ، نتساءل : « كيف يمكن التوفيق بين اشكال احاطة الناس بضرورات «الطبيعة» ، كما هي واضحة في ميادين البيولوجيا والفيزياء وغيرهما وتوحيدها في نظرة كلية مترابطة ، وجعلها مفيدة للانسان حتى تصبح أكثر من معرفة نظريـــة ــ معرفة فعالة فـــي المجتمع ؟ » •

ان الجواب هو : « يتم ذلك فقط عن طريق فهم ماهية البوتقة التي اذيبت فيها هذه المعرفة » • أليست هذه واحدة من مهمات علم النفس ؟ لا • فعلم النفس ليس الا ذلك العلم المتخصص بدراسة عقل الفرد وجميع اشكال وعيه المختلفة • وهـــذه

الاشكال بالذات يأخذها من تجاربه التي هي تجارب اجتماعية في الحقيقة · ان انعدام التنظيم بين هذه العوالم المنظمة داخليا ، ولكنها مغلقة على بعضها ، للمعرفة الانسانية يمكن علاجه فقط من خلافهم ذلك الشيء الذي انتج كل هذه العوالم بالذات ونعني : المجتمع · ليس الانسان الفرد هو الذي ينتج العلم ، فمعيار الحقيقة العلمية هو كونها **موضوعية** ، اي يمكن اختبارها من قبل اناس اخرين ـ لا نقول جميع الناس (بمن فيهم المجانين والمعوقين عقليا جنبا الى جنب مع الحكماء) . نقول اناسا منظمين اجتماعيا ، وبالتالي مؤهلين ، من خلال افعال المجتمع وتنظيمه المناسب ، لاختبار هذه الحقائق وحجم اعوادها · ان « الحل » لفوضى الثقافة البرجوازية ، مثلها مثل الاقتصاد البرجوازي ، يمكن في ان يغدو الناس واعين لضروراتهم هم بالذات ، لا كأفراد ولا كبشرية مجردة غير موصوفة وغير متميزة ، بل كناس في غمرة الفعل الاجتماعي ـ وهذا يعني ، في حالة الاقتصاد بصورة عامة ، ان يكونوا واعين بوصفهم اناسا متورطين في الانتاج لاغراض اجتماعية، وفي حالة الايديولوجيا بصورة خاصة ان يكونوا واعين بوصفهم اناسا متورطين فعلا في دراسة الواقع لغايات اجتماعية · غير ان الناس ـ الافراد الواقعيين المعاصرين ـ لا يستطيعون ان يصبحوا على ذلك المستوى من الوعي الا بوصفهم جزءا من عملية تحول الثقافة البرجوازية الى ثقافة شيوعية ، بوصفهم مساهمين حقيقيين في سديم النضال الثوري ، عملية التحول تلك التي هي نفسها من نتاج افعال الطبقة المعادية للبرجوازية ألا وهي طبقة البروليتاريا · وهذه البروليتاريا ، بسبب موقعها وتنظيمها في المجتمع البرجوازي، هي طليعة الكفاح وقيادته · ولذلك يبدو ان فهم التاريخ يستلزم صنعه ، وهذا هو الوضع في حقيقة الامر ، انها تلك الضرورة التي لا يكون فيها التاريخ مختلفا عن العلوم الاخرى ، بل يكون مماثلا لها ·

كانت الخطة الاساسية للتاريخ كعلم قد وضعها ماركس وانجلس ، وقد كانت هذه الخطة نتاج مساهمتها الخاصة في النضال الصانع للتاريخ للطبقة العاملة في ذلك الوقت ـ المرحلة الاولى من هجوم البروليتاريا ضد البرجوازية · انه علم ماركس ـ انجلس هذا هو : **المادية التاريخية ـ** التي هي نظرة الى العالم كوحدة لانه عالم مادي ، ونظرة الى العالم كتطور لان له تاريخا · عندما تتم عمليات استبدال الثقافة البرجوازية بالثقافة الشيوعية بشكل كامل ، نتيجة للثورة الاجتماعية وما يعقبها من بناء اجتماعي، عندئذ ستتحول جميع القواعد المنظمة للثقافة البرجوازية الى كل متناغم والى نظرة كلية منسجمة ومتناغمة · وهذه النظرة الكونية ستكون تاريخية بالضرورة ، اي انها ستكون نظرة تطور الناس كمخلوقات منظمة اجتماعيا، لا تطورهم العفوي والفوضوي ، بل كعملية محددة · لن يجري ابتلاع البسيكولوجيا والبيولوجيا والفيزياء وامتصاصها من قبل التاريخ ، الا بمقدار ما يجري امتصاص تنظيم المصنع او تنظيم المدرسة او تنظيم المسرح من قبل التنظيم الاجتماعي · ان هذه التنظيمات ستولد ، مع ازالة العامل المصدع . المصلحة الخاصة او الربح ، التنظيم الاجتماعي ، وهي نفسها تتمايز ، نتيجة هذا التنظيم ، وتكتسب مزيدا من الغنى · فانبعاث التاريخ لن يكون ، لذلك، متجسدا في تجمع العلوم بل في ازالة القوة الخفية التي كانت تشوهها وتعزلها الى درجة اعلى فأعلى · وما ان تتم ازالة تلك القوة الخفية حتى تتصل العلوم ببعضها ، فينتج التاريخ عن هذا الاتصال · ان هذا الاتصال سيبعث فيها الحياة مره اخرى ، وسيرفعها الى قمم جديدة ، لان عزلتها عن بعضها بالذات ، وجهلها بجذورها الخاصة الممتدة في العملية الاجتماعية ، هما العاملان اللذان يعوقان تطورها ·

اذا كان الانسان حتى ذلك التاريخ عاجزا عن كتابة التاريخ فان ذلك يعني ان كل الحضارة ، حتى الوقت الحاضر ، كانت

جزءا من المرحلة قبل التاريخية للمجتمع · ان الدليل على فهم الانسان للتاريخ بمعناه العلمي هو قدرته على صنعه ، ليس بشكل اعمى بل وفقا لارادته ، مثلما ان الدليل على فهمه للفيزياء هو قدرته على جعل العناصر تأتي مصداقا لتنبؤاته تماما · ففهم التاريخ مرتبط بذلك الانتقال من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية بالذات ، والذي هو السمة التي تطبع اخر مراحل ما قبل التاريخ ، وانبثاق البروليتاريا كطبقة لتنتهي الطبقات ولتدشين بالتالي حضارة تاريخية ·

كان ماركس اول من استطاع تبيان حقيقة ان التاريخ يصنعه الناس فعلا ـ لا الانسان المجرد بوصفه حيوانا متطورا ، ولا الرجال البارزون بوصفهم قوى متناثرة مكانا وزمانا ، بل مجموعة الافراد المتواجدين في المجتمع بشكل ثابت · لا يعني ذلك انه رأى التاريخ قصة جماعة ، لان هذا ايضا تجريد مرة اخرى ، ونوع من اقحام الافراد العيانيين في قالب جماعة مثالية خيالية · فلأن التاريخ كان قصة أفراد مختلفين يلعبون ادوارا مختلفة ، كانت العلاقات القائمة بين اولئك الافراد ذات اهمية ، ولان هذه العلاقات ظهرت نتيجة فعل المجتمع في المادة ، فان التعبير عنها في الفن والاخلاق والعلوم والدين والقانون كان عاملا فعليا في تاريخ المجتمع · فلأن ماركس رأى ان التاريخ لم يكن الا قصة جميع الافراد ، فقد اهتدى الى ان هذا التاريخ ينبغي ان يكون علم المجتمع المنظم ، لان الافراد لا يكتسبون اي معنى الا من خلال التنظيم. فبفضل تداخل زحمة العلاقات المتشعبة ، التي تنطوي عليها العلاقات الاجتماعية ، والتي تتقاطع في نقاط التقاطع ، تكتسب نقاط التقاطع هذه ، التي هي الافراد ، فرديتها وتغدو اكثر من عينات جنس او فصيلة بذاتها ·

ما هو التاريخ ؟ انه قصة الانسان · غير ان البشر يمكن

النظر اليهم ككتلة من المادة ، وبصفتهم هذه يؤدون حركات معينة خلال مسار الزمن · لم يعد ذلك موضوعا للتاريخ ، بل للفيزياء · فالتاريخ يركز اهتمامه على تلك التجديدات النوعية التي احدثتها البشرية والتي تميزها عن الطبيعة - عن المادة الميتة والحيوان · ان التاريخ هو قانون حركة البشر ، لا كمادة او كعضويات حية تتنفس او كحيوانات ، بل كشيء متميز عن كل هذه العوالم بوصفه **عالما لحيوانات منظمة تنظيما اجتماعيا ·**

لا يبدأ التاريخ ، اذن ، الا حيث تغيب علوم الفيزياء والفيزيولوجيا والبيولوجيا عن المسرح · ان قوانين الفيزياء تعم سائر الميادين غير ان لكل من علمي الفيزيولوجيا والبيولوجيا قوانينهما الجديدة ايضا ، وقوانين الفيزيولوجيا بدورها تكون نافذة في البيولوجيا الذي هو ، على اي حال ، مجال لقوانين جديدة نوعيا · ان التاريخ لا يبدأ الا حين تبدأ قوانين فتية ، منطوية على القوانين الفيزيائية والفيزيولوجية والبيولوجية ، ولكنها اضافية بان تفعل ايضا بالنسبة لها . فتطور وتبدل هذه القوانين هما اللذان يؤلفان موضوع التاريخ · ونحن لا نستطيع ان نبدأ بالحديث الا في هذا الاطار · ولكن السؤال الذي يطرح علينا باستمرار هو : ما الذي يفرق الانسان ويميزه ، في كل مراحل تطور البشرية عن الوحوش ؟ بالاجابة على هذا السؤال نجح ماركس في الكشف عن كل عالم القوانين الخاصة بالتاريخ ·

ان للتاريخ خصوصية اضافية تميزه عن سائر العلوم ألا وهي ميزته في انه يجبر الانسان على ان يلتفت الى الوراء لينظر الى نفسه ويقف معها وجها لوجه ·

وباعتباره خاض غمار الفيزياء والفيزيولوجيا والبيولوجيا حتى وصل الى التاريخ ، فان الانسان يجد ما انتجته كل هذه

العلوم جزءا من التاريخ الذي بالتالي يسمو عليها · عندما تقفل الدائرة الايديولوجية ولكن فقط بعد احتوائها جميع مجالات النشاط الانساني كعوامل مادية وكأشياء مترابطة سببيا في كل مرحلة من المراحل · وعملية الاقفال تكون فقط في الاتساع او الفراغ ـ لان التاريخ هو ما يصنعه الناس ، وهؤلاء الناس مستمرون في الحياة ، وبالتالي يكون التاريخ وسائر الايديولوجيات ، التي يشكل التاريخ سجلا لاجنتها ومكوناتها ، مستمرا في الانكشاف والتجلي اذا جاز التعبير · انه يتكشف ويتجلى ، في الحاضر ، في فعلنا ، ونحن نعيش ونتحرك داخل المجتمع الواقعي العائد ليومنا الراهن · فالدائرة المقفلة ايديولوجيا مفتوحة على الفعل الذي تتحد معه لهذا السبب · ان التاريخ يتحرك من الفعل وعبره ليصل عقل الانسان ·

غير ان اخر الاشياء التي يرغب البرجوازي في تعاطيها هو : ان ينظر الى نفسه ويقف امامها وجها لوجه ·

لقد كان جواب ماركس على سؤال : ما الذي يميز الانسان عن الحيوانات ؟ هو : ان الانسان منظم ، وتنظيمه هذا تنظيم اجتماعي : ما من شيء من قبيل الانسان المعزول ، ولا وجود الا للناس الاحياء الحقيقيين ، ولا مجرد اناس محتشدين مثل سرب من الجراد ، بل اناس منظمين في اطار علاقات اجتماعية تنبثق من الانتاج الاقتصادي · فالتعاون الضروري بالنسبة للانتاج يجعلهم يتوحدون ، ويجعلهم بشرا ·

قد يقال : ان النحل والنمل والدبابير هي الاخرى تتوحد في الانتاج ، غير ان ذلك لا يحولها الى بشر · صحيح ، وما هو الفرق البيولوجي القائم بين الحشرات الاجتماعية والانسان ؟ ان هذا التنظيم بالنسبة للحشرات يكون غريزيا : فالنحل

والدبابير سيقومون باعادة انتاجه في كل الحالات · امـــا البشر فلا يعيدون انتاج مجتمعهم بشكل غريزي · فالثقافة والرأسمالية الاوروبيتان ليستا غريزيتين · ولو ألقينا بعدد من البشر ، وهم اطفال ، في غابة ما لتجولوا فيها مثـــل الوحوش ، ولظلوا دونما فردية أو وعي ، متوحشين وغيـر ناطقين ·

هذا برهان على ان سلوك الانسان وافكاره وفنه وعلومه وقوانينه واخلاقه وتقنيته ليست داخله هو ، ليست من صلب بنيانه الجنيني الفطري · ليس هناك في هذه البنية الا تلـك المرونة ، تلك القدرة على اتخاذ هذا الشكل ، او ذاك ، او آلاف الاشكال الاخرى · فهذه الامور ــ السلوك والافكـار والفنون والعلوم والقوانين والخ ··· ينبغي ، لذلك ، ان تكون خارجه ويجري فرضها عليه من الخارج لا بصورة ميكانيكية كما تفرض الحروف على الورق في الآلـــــة الطابعة او الناسخة ، بل بالطريقة التي تسلكها الخلية في الجسم عندما تكون في جزء محدد من الجنين وعلى علاقة محددة بالاجزاء الاخرى فتتحول اما الى عظم ام الى شحم ام الى خليـــــة جلدية ، وتبقى مع ذلك مؤهلة ، في حال نقلها وزرعها في مكان اخر ، لان تغير طبيعتها وفقا لوضعها الجديد ·

اذن ، ما هو ذلك الشيء الموجود خارج الانسان الوحدة والذي يمارس عليه مثل هذا التأثير ؟ انه ، ببساطة ، تلك العلاقات التي يقيمها مع الناس الاخرين ، لا بارادته ، بل لانه ولد في هذا المجتمع او ذاك ، بنفس الطريقة التي تتأثر بهـا الخلية بعلاقاتها بالخلايا الاخرى الكائنة فـــي الجسم ، لا بصورة طوعية ، بل لوجودها في هذا المكان او ذاك · ان جميع العلاقات الاجتماعية التي يتم التعبير عنها في سائر اشكال وصيغ التعامل الممكنة بين الانسان والانسان تغدو ، حسب تفسير ماركس ، لا اشياء مقحمة على البشر بشكل اضافي ،

اي « موضوعة قيد العمل » من قبل الانسان ، بل هي نفسها الاشياء التي تجعل من الانسان العياني الملموس ما هو · غير انه ـ اي الانسان ـ الذي تتم صياغته بهذه الصورة ، يجعل الناس الاخرين مختلفين ومن خلال هذه القنوات نفسها ، مرة اخرى ، ومن هنا نرى ان هناك معنى حقيقيا لتعريف الانسان على انه الانسان المنظم تنظيما يختلف عن التنظيم الظاهري لخلية النحل · ان هذا التنظيم هو اكثر من الناس الافراد ولا يمكن التنبؤ به منذ الطفولة المجردة ، لان له قانون نمو خاص به يحتل دهورا بكاملها ، غير انه ، مع ذلك ، يبقى تنظيما يخص **الناس** · انه ليس بيئة معينة · فانتظام الفراشات المحتشدة ، حول اللهب أم الوحوش حول لحسة مالحة ، يكون تنظيما **بيئيا** على سبيل المثال ، كما ان لانتظام النحل في الخلية يكون تنظيما **فطريا** نابعا من الاعماق · اما تنظيم الناس ، ذلك التنظيم الذي ينتج الظواهر ، التي يجب على التاريخ دراستها بالذات ، فلا يكون هذا او ذاك ، انه **اجتماعي** ·

وهكذا فان التاريخ لا يغدو دراسة للافراد ولقدراتهم الفطرية وتبدلاتهم في طريقة الاستجابة لهذا الحافز او ذاك (فذلك يدرسه علم النفس) ، ولا دراسة تأثير البيئة على البشر (تلك يبحثها الايكولوجيا : علم البيئة) ، بل دراسة هذا التنظيم الذي لا يكون فطريا ولا مأخوذا من البيئة ، والذي ، رغم كونه تنظيما للناس في اطار الطبيعة ، يخضع لقانون تطور معين ، لا هو بشري ولا هو طبيعي بل اقتصادي· وما من شك اطلاقا في ان الثقافة البرجوازية عاجزة عن تحليل هذا التنظيم ، لان هذا التنظيم بالذات هو الذي ينفيه الاقتصاد البرجوازي كشرط مسبق له هو ، ويخفيه عن الاعين بكل الوسائل الممكنة · والثقافة البرجوازية تدأب على رفع الانسان الفرد في مواجهة هذا التنظيم ، وتتورط على الدوام في سلسلة من التناقضات ، لان كل المواصفات التي تدعوها

فردية ، متولدة من احشاء التنظيم ، ناهيك عن عدم كونهـــا معادية لها ، ولان الحالة التي تزعم بانها من انتاج التنظيم ـ ونعني حالة الانسان المشوه وفقد الحرية ـ هي نفسهـــا حال الانسان المتواجد بالفعل عندما يكون محروما من التنظيم.

او ما كان يجب ان يكونه قبل ان ينتقل من عالم الحيوان الى عالم الانسان • ان هذا ينطوي ايضا علـــى ان البرجوازي ينتج ، خلال كفاحه في سبيل هذه الفرديات الغالية ـ ويا للرعب بالنسبة له ! ـ مزيدا من الدرجات العليا في التنظيم ، وفي مصارعته ضد التنظيم ينتج انعداما للفردية وزوالا لها •

وهو معرض بسبب كونه يكافح كفاحا اعمى ، لان ينتج كل ما هو غير متوقع ، وكل ما هو فوضوي ، ويبرهن على افتقاده للتاريخ من الاختبار البسيط الذي يؤكد على انه عاجز عـــن صنع التاريخ بشكل واع • ان التاريخ بحاجة لمن يصنعه ، لان الناس ، بوعي او بدونه على حد سواء ، ما زالوا يعيشون، وبالتالي فان التاريخ يبرز الى الوجود بالنسبة للبرجوازي كسلسلة من المفاجآت والكوارث ـ نقيض رغباته • ويبقـــى الانسان ، رغم انه موضوع التاريخ ، في المرحلة قبـــــل التاريخية للثقافة •

يسأل ماركس عن السبب الكامن وراء ظهور هذا التنظيم . الذي هو ليس تنظيما كيفما اتفق ، او اجتماعا رتب بشكـــل محدد بين اعداد من الناس صدفة ، لان من الواضح ان لهذا التنظيم تاريخا من التطور : بمعنى ان كل مرحلة متولــــدة وناشئة سببيا من المرحلة السابقة عليها • واذا لم يكن هـــذا التنظيم محددا بالغريزة فلم لا يتحدد بالبيئة ، وفي حال كونه غير محدد بأي من العاملين ، أفلا يكون سببه خارج الكون : غير محدد ، غير مادي ، وغير قابل لان يكون معروفا ؟ لو استطاع المرء ان يفسر كيفية ظهور هذا التنظيم الى الوجود لاستطاع الامساك بقانون حركته الداخلي ، وبالتالي تغـــدو

حركة التاريخ مفهومة ، ويصبح الانسان قادرا على صنع التاريخ بوعي ٠

اما ان هذا التنظيم سماوي (قدسي) ، وغير مادي ، وغير قابل لان تتم معرفته ، او انه يجب ان يكون ناتجا عن فعالية تشكل جزءا من الكون ، غير انها مع ذلك متميزة عن كل من الانسان والبيئة منفصلين ـ يجب ان يكون ناتجا عن تفاعل البشر والبيئة بينهما ، اذا كان هذان الطرفان منفصلين ثم اجتمعا معا وحققا تفاعلا او تزاوجا ، فان هذا التزاوج يكون كيانا ماديا محددا جديدا ، والنتيجة او التركيب (الصيرورة Synthesis هي نقطة بداية حركة جديدة ٠

ولكن ما معنى تزاوج او تفاعل الانسان والبيئة ، ذلك التفاعل الذي يؤدي الى تغيير الطرفين ـ طرفي الانسان الغريزي والطبيعة البيئية ؟ ان هذا التفاعل هو الانتاج الاقتصادي ، وصحيح ان هذا هو الشيء الذي يميز الانسان ، حتى في أبكر المستويات التي نعرفها ، عن الحيوانات ٠ اما النتائج الملموسة لهذا التفاعل ، التي هي العوامل الفعلية للتاريخ ، فيمكن تلخيصها بـ : **البشر المبيئين** ، والبيئة **المؤنسنة** ٠

ما معنى تعبير : بشر مبيؤون ★ ؟ وكيف يمكننا ان نتحدث عن كون الانسان مشروطا بالبيئة ؟

للاجابة نقول : اذا اراد الناس ، مثلا، ان يفعلوا في البيئة ـ كأن يرغبوا في نقل جذع من مكانه الى مكان اخر ـ فان شكل الجذع يتطلب اتحاد حد ادنى معين من الافراد ، ويستوجب منهم ان يدفعوا سوية ، وان ينتظموا حول الجذع

★ تكيفوا مع متطلبات البيئة ٠

بطريقة محددة · وهكذا يكون ذلك العدد من الناس قد جرى تنظيمهم من قبل المهمة ـ من قبل ضرورات قطعة الطبيعة التي وجدوا انفسهم في مواجهتها ·

الاشخاص انفسهم يكونون قد تغيروا ، فالمساهمة في انجاز المهمة اضافت الى المعلومات التي كانت بحوزتهم عن الجذوع · وقد يتوصلون نتيجة العديد من المهام المختلفة الى اختراع العتلة ، والان بعد الشروع برفع الجذع عن طريق العتلة تؤدي المهمة الى تنظيمها بطريقة مختلفة · فالمستوى الاول من التنظيم يكون قد ادى الى المستوى الاخر ·

وهكذا نرى ان كل الصفات المميزة للانسان : وعيه للواقع مثل امكانية تحريك الجذع (علوم) ، وعلاقاته العاطفية كما تتجلى في قيام الجميع بدفع الجذع بكل قوتهم (الفنون) ، وعلاقاته الاجتماعية كما تتضح حين يتولى احدهم اصدار التوجيه لحظة وجوب البدء بالدفع (القوانين ، الاخلاق ، التقاليد) ، وسيلة في زرع التجربة والارادة اجتماعيا فيما يتعلق بالجذع (اللغة ، الكتابة) ، كل هذه الصفات المميزة هي صفات بيئية · صحيح ان الشيء نفسه ينطبق على التكيف العضوي لكل من كلب البحر والحوت مع الماء ·

غير ان هناك فرقا وهذا الفرق يكمن في حقيقة انه : في حين تكون هذه التكيفات العضوية مع البيئة تكيفات فردية تكون عمليات تكيف الناس **تكيفات علاقات اجتماعية لجملة مع الناس** مع البيئة · ان كلب البحر يتكيف مع الماء من خلال تحولاته الجسمانية الفطرية · اما الانسان فيحقق تكيفا افضل مع الماء ، ولكن من خلال المجتمع فقط ، لان المجتمع قد قام ببناء السفن ، وخلق الموانيء ، وتطوير السفريات البحرية ، مما أهل الانسان لان يفرض سيادته على الماء · ان عمليات

تكيف الانسان ليست تكيفا مع الماء بل مع المجتمع الذي لا يتكيف مع الماء الا ككل ، الا كمنظومة فاعلة منظمة · فلسفة الانسان ، ومعرفته الفيزيائية ، وكبرياؤه الحضاري لا تتكيف مع الماء بصورة مباشرة ، ونحن حين نقول الانسان المبيأ انما نعني ، بذلك ، اناسا عندهم تنظيم انتجته لهم ضرورات البيئة ، ولا نعني اناسا متعرضين لتحولات فردية ، مثل الذيل المنبسط لكلب البحر ، أحدثتها البيئة عندهم · ولان الناس منظمون وهم يشكلون وحدات التنظيم وخلايـــــاه . فانهم يتعرضون للتحول من قبله · انهم لا يتحولون كأفراد ووحدات منفصلة (مثل كلاب البحر) بتأثير البيئة ، بـل يتعرضون للتحول من خلال التنظيم الذي يساهمون فيه لمواجهة البيئة . فهم لا يواجهون البيئة بوصفهم مجرد اشخـــــاص وكيانات منفصلة : انهم بهذه الصفة يواجهون فقط المجتمع المنظم . الذي ولدوا فيه وترعرعوا داخله · وما هو هذا التنظيم ؟ انه ذلك التنظيم الذي يضطر الناس فيه لان يعملوا كجماعة يدا بيد من أجل تحويل البيئة · انه التنظيم الذي يفرضـــــه الانتاج الاقتصادي الذي يولد الصفات الانسانيـة المتميزة واللاغريزية ·

والتنظيم نفسه نجده منعكسا في البيئة المؤنسنة · فالبيئة ذاتها تتعرض للتبدل من مجرد حركة المدن والطرق والموانىء والسفن والآلات والنباتات المزروعة والزراعة بشكل عـــــام والخ ··· المادية فقط بل ولان هذه العملية نفسها تجعـــل البيئة ، من خلال كشفها عن الواقع بمزيد من الوضوح ، مختلفة بالنسبة للانسان · ان عالم ثقافتنا يشكل بيئة مختلفة عن عالم الانسان المصري ، ويغدو الناس مختلفين ، بنفس القدر ، من جراء تعرضهم للتغيير ، بالنسبة للبيئة ومختلفين ايضا بالنسبة لبعضهم · فانسان علم النفس والفيزيولوجيا العصريين ليس هو انسان الرقصة الاسترالية ، وعالم الزنجي ليس هو عالمنا نحن ·

ان ما نطلق عليه اسم التنظيم هو نتاج عملية واحدة ذات وجهين : وجه تبييء الناس المنظمين ، وهو وجه انجاب كل القيم الانسانية من لغة وعلوم وفن ودين ووعي ، من جهة . ووجه أنسنة الطبيعة اي وجه احداث التغييرات المادية في الطبيعة وزيادة فهم الانسان للواقع ، من جهة ثانية . وهكذا نرى ان تطور البشرية لا يعني مزيدا من انفصال الانسان عن « حالة الطبيعة » . انه مزيد من توغل الانسان في الطبيعة . وليس التاريخ ، كما يتوهم البرجوازي ، قصة الانسان بذاته ، او قصة ، الطبيعة البشرية (التي لا تتعرض لما يكفي من التغيير حتى تكون موضوعا للتاريخ) بل هو قصة هذا المزيد من التوغل في الطبيعة من قبل الانسان نتيجة لصراعه معها . انها قصة الانتاج الاقتصادي . ان قصة الانسان ليست هي قصة المزيد من اخضاع حرية الانسان وفرديته للتنظيم بغية مجاراة الطبيعة ، بل هي قصة تعاظم حريته وفرديته من خلال التنظيم ، الذي تفرضه الطبيعة في اثناء تعامله وتداخله معها . ان استحالة العثور على اية قيم انسانية او اية اسباب مادية منفصلة في مسار التاريخ تعزى لهذه الحقيقة بالذات والتي تؤكد على ان التاريخ يعني دراسة تفاعلهما المتزايد جنبا الى جنب مع دراسة التطور الغني لتلك الشبكة المتداخلة التي لا يمكن فصلها عن العلاقات . فالتاريخ هو دراسة علاقة الموضوع ـ الذات بين الناس ـ الطبيعة ، لا اي منهما بصورة منفصلة . انه يعني دراسة منتجات الناس الفاعلين في الطبيعة ، والمتأثرين بها في الوقت نفسه . والطبيعة لا تجد نفسها في مواجهة الناس الافراد ابدا ، بل في مواجهة أناس يعملون متعاونين في الانتاج الاقتصادي على الدوام ، كما ان الانسان لا يجد نفسه في مواجهة الطبيعة مواجهة مباشرة ابدا ، بل في مواجهة المجتمع المنظم من جانب الطبيعة باستمرار .

ولا يجد هذا الانسان أو ذاك نفسه ، بسبب الانتاج

الاقتصادي ، مولودا في الطبيعة وبين احضانها ، بل في مجتمع جرى تنظيمه من خلال التداخل مع الطبيعة ، وفي طبيعة جرى تغييرها واختراقها بأشعة X من جراء ذلك التداخل · انه لا يشكل مجتمعا بشكل واع في اية من المراحل ، بل المجتمع هو الذي يقوم بتشكيله او صياغته · وهو بدوره ، نتيجة لذلك ، مركز فعال ونشيط لاحداث تحول جديد ، انه يقوم ، بدوره ، بتشكيل المجتمع وصياغته · هكذا تسير عملية التطور وهذا هو التاريخ ·

لا يقتصر حدوث التاريخ على الجانب البشري ، فرغم ان المجتمع هو الذي يغير الطبيعة فان هذه الطبيعة التي تعرضت لمثل ذلك التغيير تفرض اشكالا وصيغا جديدة من التنظيم على المجتمع ·

ايهما يأتي اولا ، اذن ، أهو الانسان الفرد أم المجتمع ؟ ألم يحدث ان وجد أناس أفراد أنفسهم بدون مجتمع ، فأقاموا ، نزولا عند مستلزمات ضرورات الحالة ، تعاونا اجتماعيا فيما بينهم بصورة واعية ؟ لا · لقد كان المجتمع أولا · فأشباه الانسان الذين هم دون الانسان هم الذين ينبغي ان يكونوا ، مضطرين بشكل لا شعوري وأعمى لان يقيموا بعض الصيغ الفظة والبدائية ، غير المعروفة لدى الحيوانات الاخرى ، للانتاج الاقتصادي ، وقد اضطروا ، من خلال هذه الفعالية بالذات ، لان يصبحوا بشرا ·

روايات التاريخ المختلفة

لقد كان ماركس ، اذن ، هو اول من كشف عن موضوع التاريخ ، الذي لم يكن حتى ذلك الحين ، ولا يزال الى يومنا هذا لدى الاكثرية الساحقة ، غير متميز في اطار مقولات

الثقافة البرجوازية · ان ماركس هو اول من بين ان جميع نشاطات البشر وفعالياتهم تشكل موضوعا للتاريخ ولا بد من احتوائه لها · وأظهر ان لكل انسان ، من خلال علاقاته النشيطة مع غيره من البشر ، دورا مسببا في تحديد حركات التاريخ ، لا « عظماء الرجال » فقط ، وهم يعملون على قنوات خاصة ، وال « اراء هامة ، او المناسبات خاصة » ـ « اوقات الاختمار ـ هم الذين ينتجون حركة الحضارة · ومثل هذه الفكرة لم تكن من قبل تتعدى حدود تلمسها في ظل قناعة خاطئة حول ان كل شعب يقدم ، بشكل سلبي وجامد ، أرضية التاريخ ، في حين ان عظماء الرجال ، والاحداث العظيمة ، والثقافات العظيمة قد لعبت دور عوامل التحريك او الالتهابات المفاجئة بالنسبة لهذه الكتلة السلبية · لقد كان تحليل ماركس للعلاقات الاجتماعية تطوريا ، فكان ، لذلك ، تحليلا ثوريا : من نشاط الناس انفسهم ، كنتيجة سببية ، برز عظماء الرجال ، والاحداث الكبرى ، وانبثقت الثقافات العظيمة ، وبالتالي تطور قانون داخلي للحركة·

لا شك ان الثقافة البرجوازية ، التي تولت في افضل فتراتها مهمة فهم كل ما يحيط بها ، **حاولت** تطبيق خطة سببية على التاريخ · غير انها كانت محكومة بالاخفاق في هذه المحاولة للسبب نفسه الذي حكم على الفلسفةالبرجوازية بالاخفاق ، لانها أمسكت بادىء الامر بالموضوع كشيء متميز ومنفصل عن الذات ، ثم اضطرت ، بدفع من منطق الواقع ، لان تمسك بالذات ، فوجدت نفسها في وضع على الدرجة ذاتها من استحالة الدفاع عنه · ان الذات والموضوع، رغم كونهما قطبين متناقضين ، متداخلان فيما بينهما · وهذا التداخل او التفاعل في الفرد هو الاحساس · اما في الافراد البشر مجتمعين فهو التاريخ · انه تداخل نشيط وفعال ، وبمقدار ما تصبح الثقافة البرجوازية ثقافة الطبقة التي

يتجسد دورها في الوعي ، تلك الثقافة التي تكون مطلقة من الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ، التي تتركز مهامها على الفعل ، يحدث الفصل بين عنصري الاحساس · ومن ثم يحدث التمزق الذي ينتزع كلا من التاريخ والابستمولوجيا (علم المعرفة) احدهما عن الاخر ·

كانت الخطة السببية الاولى للتاريخ التي انجبتها الثقافة البرجوازية ، متجسدة في التفسير البيئي والمادي ـ الميتافيزيقي ، الذي يقول بأن التاريخ الاجتماعي للانسان هو نتاج بيئته · فالمناخ الحار ينتج العروق السوداء · وحيث يتواجد الفحم لا بد من قيام الثقافة الصناعية · وفي المناطق الباردة يكون الانسان صيادا بالضرورة · اما على ضفاف الانهار وبجانب البحار فيكون اما بحارا واما صيادا للسمك · والمناطق الخصبة تكون قادرة على اعالة الكثافات العالية من السكان وتجعل قيام المدن أمرا ممكنا · اما الفيضانات المنتظمة فتؤمن خلق الزراعة المستقرة ·

ان لهذا التفسير ، رغم قوته ، نقاط ضعف قاتلة واساسية، فهو يتجاهل الدور الفعال والخلاق للانسان ، ويصوره مصوغا صياغة سلبية من جانب البيئة ، ومن الواضح ان ذلك لا يمكن ان يكون صحيحا ·

ان الفحم ، مثلا ، موجود في اماكن عديدة من العالم ، غير انه لم يؤد ، الا في امكنة محددة وأزمنة معينة ، الى فرض السيادة الصناعية · وفي اماكن اخرى تم تشييد صرح التطور الثقافي على قوة الماء · وهناك الاف الجزر في العالم ، وفي بعض هذه الجزر يكون الاهالي بدون زوارق ، وفي بعضها الاخر يملكون مهارة تتدرج من صنع أبسط الزوارق الى انتاج اضخم السفن عابرة المحيطات ·

لقد عاش قدماء البريتون Britons فوق مساحات شاسعة من مناجم الفحم ، غير ان الفحم ، بالنسبة لهم لم يكن موجودا ، وبالتالي لم يستطع ان يحدد شكل وجودهم ·

ذلك يكشف عن « الثغرة » الكائنة في التفسير المادي الميكانيكي · فنوابض الطبيعة القادرة على ان تشكل شروطا محددة ، لا تتواجد كشروط حاسمة الا بمقدار ما تنتقل من كونها اشياء بذاتها لتصبح اشياء لنا نحن · لم يكن الفحم موجودا بالنسبة للبريتون القديم ، لانه لم يكن يمتلك التكنيك الكفيل باستخراجه · وهذا التكنيك يعتمد على تنظيم اجتماعي محدد ، حينما يكون تقسيم العمل الضروري موجودا حتى يجعل الفحم عاملا اجتماعيا حاسما ·وبالمثل فان الجو لا يكون موجودا كواسطة نقل هامة الا بالنسبة لعرق او جنس بشري يمتلك التكنيك والتنظيم الاجتماعي الضروريين للطيران ، كما ان الماء لا يكون موجودا كوسيلة للقيام بالرحلات البحرية الا بالنسبة للاقوام القادرة على بناء القوارب والسفن، هذه الاقوام التي تكون احجام ودرجات تعقيد قواربها وزوارقها ، بدورها ، معتمدة على وضعها من حيث تطورها الاقتصادي ·

وهكذا نجد ان اية خطة تسعى الى جعل الصياغة المادية للبيئة عاملا حاسما في الحضارة تخفق ، لانها لا ترى ان البيئة ليست شيئا ثابتا · ان البيئة ، كبيئة ، تعتمد في كل مواصفاتها على الذات ، اي الانسان ، وبالدرجة الاولى على التنظيم الاجتماعي لهذا الانسان · انها تصبح بيئة قابلة للاستغلال ، فقط في الاماكن التي يكون فيها التكنيك والتنظيم الاجتماعي على مستوى يجعل مثل ذلك الاستغلال ممكنا · انها تغدو بيئة قابلة للفلاحة ، ولانتاج المحاصيل في اماكن محددة ، فقط عندما يكون التنظيم الاجتماعي متطورا الى

درجة تكون الزراعة معها ممكنة · كما انها تصبح بيئة قابلة للملاحة البحرية فقط ، حيث يكون التنظيم الاجتماعي مساعدا على بناء السفن وابحارها ·

وعلى الرغم من ان البيئة بوصفها انهارا وحديدا وفحما واجواء تحتوي على عوامل حاسمة بالنسبة للمجتمع في كل مرحلة من مراحل تطوره ، فان الذي يحدد اي هذه العوامل يكون حاسما هو مستوى التنظيم التقني والاجتماعي للانسان في المرحلة المعنية · انه ، باختصار انتاجه الاقتصادي · فالبيئة كبيئة ، تتعرض للتحول من جانب الانتاج الاقتصادي ، ليس فقط بواقعه ، بل بطاقته الكامنة · وهكذا لا يمكن للبيئة ان تلعب الدور المسبب في التاريخ بوصفها رحما فعالا بالنسبة لمجتمع سلبي ، لان المجتمع نفسه ينتقي في كل مرحلة ، لا بصورة عفوية تلقائية ، بل كنتيجة للتطور السابق ، ويحدد اي العوامل ستكون حاسمة من بين جملة العوامل التي تؤلف البيئة ·

بعد هذا ينهار تفسير التاريخ عن طريق البيئة ، اذ بعد تجريد المجتمع من كل صفاته ، لا البيئة فقط ، لا يبقى شيء يمكن الاعتراف بانه انساني · وهذا لا يعني ان البيئة لا تلعب اي دور في تحديد التاريخ · بل بالعكس ، ففي كل مرحلة تكون البيئة العائدة للانسان حاسمة · ولكن هذه البيئة العائدة للانسان نفسها تتحول في كل مرحلة ، وتحولها لذلك ، يجب ان نبحث عنه في المجتمع ·

وذلك يقود الى التفسير المثالي للتاريخ ، حيث تتم صياغة التاريخ ، وصنعه ، وفق رغبات الانسان وافكاره واغراضه · ولكن هذه النظرية تتحطم على صخرة الصعوبة المقابلة للتفسير المادي ـ الميكانيكي · فهذه الاخيرة تعجز عن تفسير تحول البيئة ، اما الاولى فهي عاجزة عن تفسير

ثبات الانسان ـ بالثبات نعني ثباته كمجرد فرد · لو جرى ترك طفل ميلانيزي واخر اثيني قديم وثالث انجليزي معاصر ان ينشأوا في غابة ، او في مدينة او مصنع مهجورين للغرض ذاته ، لما أبدى اي منهم اية من سمات ثقافة أبوية ـ لا لغتهم ، ولا انتاجهم الاقتصادي ، ولا وعيهم · بل لترعرع الثلاثة ولاصبحوا دون البشر · ذلك يبين ان الانسان يبقى طوال عصور وقرون دونما تحول يذكر نسبيا·، او ان تحوله الجنيني الفطري لا يتناسب بحال من الاحوال مع تحوله كعضو في مجتمع معاصر · وهذا يواجهنا بمأزق : كيف يستطيع النموذج الفطري غير المتبدل ان يحدث ، من خلال فعله في البيئة ، التحول الذي تحدثنا عنه ؟ لا جواب غير القول انه تحول ليس في الانسان الفرد بل في ارتباطاته ـ في ذلك التفسير للانسان بالطبيعة حيث لا الانسان وحده ولا الطبيعة المجردة ؛ بل نظام الانتاج الاقتصادي بما فيه الالات والمشاريع ورأس المال والمدن من جهة ، والعلاقات الاجتماعية والعلوم والفن والقانون والثقافة التي انجبها ذلك النظام من جهة ثانية · ولهذا النظام ، رغم انه مؤلف من اجزاء ووحدات من البيئة ، تاريخ وقانون للحركة يمكن العثور عليهما لدى تحليل اي من الجزء او البيئة بشكل منفصل ··

ان ذلك الانسان المجرد العادي ، المولود في هذا النظام وبين احضانه ، هو الذي تتم صياغته وتحوله من قبل النظام وهو ـ اي الانسان ـ بدوره يتحرك من خلال النظام ليفعل في البيئة ويحدث فيها مزيدا من التحولات التي تكون قاعدة لانطلاقة جديدة ·

ان الافكار نفسها لا يمكن ان تكون الا نتاجا لمثل هذا التنظيم القائم ، فكل من نابليون وقيصر وأفلاطون يحصل على لغته وعلى ما يراه ، تخميناته ورغباته ، من جراء كونه

داخلا في حياة اجتماعية ، من كونه قد تلقى تعليما وعاش حياته اما في مدينة اغريقية واما في روما ، ام في فرنسا الجمهورية ·

ذلك لا يعني ان الافكار مجرد ألوان زاهية متقلبة كألوان قوس قزح · بل على النقيض من ذلك فان الافكار لا تصبح الا في الماركسية ، تحديدا ، اشياء حقيقية وواقعية من خلال صيرورتها نتائج لاسباب من جهة ، واسبابا ، بدورها ، تؤدي الى نتائج من جهة ثانية · فبعد تشكل وعي داروين يخضع هذا الوعي لقانون تطوره الخاص ، ويؤدي الى تغييرات في النظام الذي يعيش فيه · ان البيئة ، بطاقاته اللامحدودة الكامنة في داخله ، تكشف بشكل مستمرومتتابع عن طاقات جديدة ومحدودة للانسان كنتيجة لتطور التكنيك· كذلك تماما يكشف الانسان المجرد العاري ، بفضل الامكانيات اللامحدودة للوعي ، عن وعي يتناسب مع النظام ألذي يجد نفسه فيه سواء أكان ميلانيزيا ام اثينيا · وعي الانسان ، عندئذ ، عامل حاسم حقيقي في التاريخ ، غير ان هذا الوعي ليس هو الذي ينتج تنظيما اجتماعيا للانتاج الاقتصادي في كل مرحلة من المراحل ، بل ان التنظيم الاجتماعي للانتاج الاقتصادي هو الذي ينتج وعي الانسان · فالوجود يسبق التفكير ، ونستطيع ان نرى بسهولة ضرورة صحة هذا الكلام · لان كل العضويات الحية تمارس نشاطا لا يكون واعيا ، وهذا النشاط اللاواعي يكون ، فيلوجينيا Phylogenetically واونطوجينيا Ontogenetically سابقا على النشاط الواعي · وهكذا نرى ان النظام العاطفي او التعاطفي في جسم الانسان يعمل بشكل لاواع وهو متقدم على النشاطات الواعية ، التي تكون على درجة اعلى من التنظيم ، واكثر جذرية وعمقا منها · فلأن الوعي يتصف بالذكاء وهو اكثر غنى بالتحديد يكون تابعا ولاحقا للاوعي·

ما من تحليل للمجتمع يهدف الى ان يكون تحليلا سببيا يستطيع ان يفترض الوعي سابقا فيكتب التاريخ بالانطلاق من الرغبات والافكار · صحيح ان التاريخ مصنوع جزئيا بالافعال الواعية لبعض الناس ، ولا بد لاي تفسير سببي من ايراد الوعي · غير ان على مثل ذلك التفسير ان يورد الوعي كما يتطور تاريخيا ، كنتاج لتطور الانتاج الاقتصادي وتقسيم العمل ·

رغم ان افعال الانسان ، المؤهلة لان تصنع التاريخ ، واعية ، وارادية ، فان النتائج قلما تأتي متطابقة مع الاهداف ، بل وكثيرا ما تكون مخالفة لها في الحقيقة · وهذه الحقيقة هي الميزة الرئيسية للمرحلة قبل التاريخية من الحضارة · كيف ، اذن ، تستطيع الافكار ان تلعب دورا مسببا ، بمعنى ان يكون التاريخ تحقيقا لها ، حين تكون الاحداث متناقضة مع رغبات الناس ؟ لا يتم ذلك الا اذا وجد نوع من الشيطان ، او القوة الشريرة ، يقف في وجه الرغبات ، وعندئذ نكون قد ابتعدنا عن اي تفسير سببي · واذا اعتبرنا تفاعل الانسان مع الطبيعة هو الشيء الاولي ، هذا التفاعل الذي تكون الافكار نتاجه الاكثر تحديدا ، فاننا نكون عندئذ في وضع نستطيع معه تفسير اخفاقات الافكار ونجاحاتها ، وفهم السبب الكامن وراء ارادات الناس وافعالهم ، ولماذا تؤدي ارادتهم وافعالهم الى النتائج التي نعرفها · ان الحياة تسبق الافكار ، ولا بد للناس من التنفس وتناول الغذاء قبل الوصول اليها ·

وبسبب اخفاق نظرية الوعي كتفسير سببي للتاريخ ، بذل المثاليون اللاحقون المتأخرون زمنيا ، محاولة هدفت الى جعل سبب التاريخ كامنا ، لا في الافكار الموجودة داخل رؤوس الناس ، بل في افكار مطلقة خارج رؤوس هؤلاء

الناس · ولا شك ان هذه الافكار المطلقة التي هي خارج رؤوس الناس ، تكون في غنى عن اي سند او سبب محدد ، غير انها لهذا السبب بالذات تكون عاجزة عن تقديم اي تفسير سببي للتاريخ · ومن هذه التفاسير المستندة الى الافكار المطلقة نجد ان تفسير هيغل ، هو اكثرها شيوعا ، واشدها انسجاما وتناغما · ان مثل هذا التفسير يواجه مأزقا ، فاما ان تكون تلك الافكار المطلقة موجودة الان فعلا وبالتالي فان عملية التطور بلغت نهايتها · واما انها ليست موجودة فعلا ، وفي هذه الحالة يتم تفسير السلسلة السببية على انه من صنع ما ليس موجودا ، ولا حاجة بنا لان نقول المزيد لبيان مدى الهشاشة المنطقية في مثل هذا التفسير · اما اذا كانت هذه الافكار المطلقة موجودة الان فعلا ، فهي اما انها كانت موجودة في الماضي، ام انها برزت نتاجا للتطور التاريخي · · واذا قبلنا بالاحتمال الاول ، فكيف يمكن للواقع وللافكار ان تكون في علاقة محددة حاسمة متبادلة ؟ وحين نقبل بالثاني : كيف يمكن للافكار ان تكون السبب وراء الشيء الذي أنجبها ؟

في الصيغة الفجة لدى شبنجلر ★ ، ام في الصيغة العابثة غير المعقولة التي يقدمها فيشر (وهو الذي يفسر الحضارة البرجوازية على انها نتاج تطور · مثال الحرية ·) ، تظهر المثالية المطلقة اقل سدادا واتزانا مما هي عند هيغل ، وهي ، بالمقارنة مع المادية ـ الميكانيكية ، دليل على زيادة بؤس الفكر البرجوازي وافلاسه ·

وواضح ان « التفسير » البيئي للتاريخ يتجاوب مع

★ اوزولد شبنجلر Oswalds Spengler فيلسوف الماني رجعي متشائم وقريب من الفاشية عاش من عام ١٨٨٠ الى ١٩٣٦ ، كانت اهم كتاباته في فلسفة التاريخ ، وفي تفسيره تفسيرا مثاليا ، كما فعل ج · فيكو قبله ، و أ · توينبي بعده ·

المادية ـ الميكانيكية في الفلسفة البرجوازية ، ومع الداروينية الجديدة في البيولوجيا ، ومع السلوكية(١) Behaviorism في البسيكولوجيا . أما « التفسير» الغائي ، بالمقابل ، فيتوافق مع المثالية في الفلسفة ، ومع اللاماركية (٢) الجديدة في البيولوجيا ، ومع المدرسة الغريزية والهورمونية في البسيكولوجيا .

ومع قيامهذه التفاسيربافتضاح افلاسها عبر تطورها هي، هناك نكوص وعودة الى نوع من التاريخ الذي يعتقد بانه نتاج المساومة او صفقة او تركيب Synthesis غير انه في حقيقة الامر لا يعدو كونه دليل اعتراف بانهيار الثقافة التي تنتجه . لقد تم التعبير عن هذا النظام في ميدان الفلسفة بالوضعية (٣) Posivitism والظواهرية (٤) phenomenalism ، غير انه يضطر

---

(١) السلوكية Behaviorism : هي المدرسة السيكولوجية التي بدأها جون واطسون ، والتي تعتبر ان موضوعها هو الافعال المرئية موضوعيا ، والتي يأتيها العضويات الحية التي تستجيب لدوافع تخلقها الظروف التي توفرها البيئة المحيطة .

(٢) اللاماركية (نسبة الى لامارك Lamarck)

وهي جزء من تعاليم لامارك حول ارتقاء الحياة من الاشكال الدنيا الى الاشكال العليا .

(٣) الوضعية positivism هي الصفة الفلسفية التي تطلق بصورة عامة على الفلاسفة التجريبيين ، مثل جون ستيوارت ميل بشكل خاص ، الذين يقولون بعدم امكانية الاجابة على الاسئلة اللاهوتية والمتيافيزيقية .

(٤) الظواهرية (او الظاهرية) phenomenalism

نظرية فلسفية حول الادراك والعالم الخارجي . فكرتها الاساسية هي ان من الممكن ارجاع الاراء المكونة حول الاشياء المادية الى اراء حول احساسات فعلية او ممكنة .

باستمرار ، من جراء تناقضاته الداخلية الخاصة به ، الى ان يتحول الى نوع من الانتقائية (٥) eclecticism المضطربة القائمة والضائعة · وكيف تتبدى هذه الوضعية في التاريخ البرجوازي ؟

تؤكد الوضعية على ان الاهتمام الوحيد للانسان هو اهتمامه بالاحساسات ، او بالظواهر ، وبما ان كلا من الذات والموضوع ، على حد سواء ، غير قابلين ، بالنسبة للوضعية ، لان نتوصل اليهما (لان الموضوع هو شيء غير قابل لان يعرف بذاته) ، فان الاحساسات هي البيانات الوحيدة لدى العلم ، وبالتالي لا يمكن اصدار اية احكام صحيحة حول الواقع · والقوانين ليست الا مجرد خلاصات متفق عليها او صدف تنبؤية محظوظة · وبالنظر الى الاعلان القائل بان الموضوع غير قابل لان يعرف ، فان الارضية الواقعية للسببية ـ أي القاعدة المادية للاحساس ـ تكون قد ازيلت · لم يعد العالم يتحرك في سيرورة باتجاه الوحدة نتيجة ماديته ، ولم تعد الاحساسات مترابطة بطريقة سببية : فكل شيء يمكن ان يحدث ·

مثل هذا الموقف ، بطبيعة الحال ، تعبير عن نفي العلم . وهو قلما يقبل التطبيق بشكله النقي · في الحقيقة ، لقد تم تهريب الذات ، او الموضوع بشكل غير شرعي من احد الابواب الخلفية · فالقوانين تغدو احكاما متفقا عليها مثلا (ماخ) (٦) ، او يغدو العالم من عمل هذا العالم الرياضي

---

(٥) الانتقاء eclecticism في الفلسفة ، ام في اللاهوت ، هي ممارسة انتقاء المذاهب من نظم فكرية مختلفة دون تبني كل هذا النظام الفكري او ذاك ·

(٦) ماخ Eruest MACH (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) فيزيائي وفيلسوف نمساوي ، كان من الفلاسفة الوضعيين الى النهاية ·

او ذاك (جانز) (٧) · وبهذه الطريقة يتم اعطاء نوع من الوحدة المزيفة المصطنعة الى هذا الميدان المحدد او ذاك من ميادين · ثم تغدو مجموعة من هذه الكيانات الموحدة الزائفة ـ مجموعة لا تستند الى اية وحدة ، بل هي حشد من المقولات المتناقضة فيما بينها ـ محتوى العلم لدى استعراض اية ساحة واسعة من ساحات الواقع · ان الوضعية تنطوي بالضرورة ، كما نرى ، على الانتقائية ·

وهذه الصورة تتضح في التاريخ البرجوازي بأحد شكلين· أولا ، وقبل كل شيء ، هناك مجموعة كبيرة جدا من الحقائق التفصيلية الدقيقة ، من النقوش والاختام الاسطوانية وقطع الفخار المتبقية ، وسنجلات تتضمن كل الصفقات ، وكل هذه تغدو ذات قيمة لذاتها هي فقط ، كما لو كان اي تراكم كاف لها ، سيؤدي بطريقة سحرية ما الى ولادة التاريخ · قد تكون مثل هذه الفرضية صحيحة شريطة ان يكون مثل ذلك العمل التفصيلي جزءا من برنامج منظم ، وله منهج محدد ، او يجري تنفيذه كباعث مشجع لعلم تاريخي عام له قوانينه المفهومة وبرنامجه السببي · ولكنه بدلا من ذلك ليس الا دكان عجائب وغرائب · انه تجميع للتفاصيل لذاتها هي ، وبما ان مجال التاريخ يشتمل على نشاطات وفعاليات جميع الناس فان مثل هذا التراكم ، الشبيه بقيام الغراب بتجميع الاشياء لمثل تلك الوقائع التفصيلية ، يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية حتى تغدو جميع مجلدات البشرية عاجزة عن الاحاطة بها · غير ان ذلك لا يمكن ان يؤدي الى نشوء علم للتاريخ ، لان وظيفة العلم هي احكام السيطرة

---

(٧) جانز Jeans ، (١٨٧٧ ـ ١٩٤٦) فيزيائي وعالم رياضيات بريطاني اشتهر بكتبه العلمية المبسطة ، لا سيما في الفلك ·

على مثل هذه المجموعات من الحقائق وتوجيهها ، والتوصل من خلال تلك السيطرة وذلك التوجيه ، الى البرهنة او النفي او التحويل · ان مثل ذلك التراكم ، طالما بقي بعيدا عن الصفة العلمية ، لا يفيد الا في زيادة الاضطراب والتشويش ·

ان اراء الناس عن التاريخ ، مهما كانت حية ومتماسكة ، لا تؤلف تاريخا ، لاننا لا نتعلم مميزات هذه الحقبة او تلك بالاطلاع على اراء اعضائها حولها ، اكثر مما نطلع على شخصية هذا الشخص او ذاك من خلال الاستماع الى رأيه هو حول نفسه · ونحن لا نحيط بقوانين حركة التاريخ من الاطلاع على مرامي اجزاء هذا التاريخ واهدافها ، لان الاحداث ، رغم كونها نتاجا لاعمال واعية قام بها اناس معينون ، لا تحقق امال اولئك الناس · اننا نتعلم هذه القوانين كما نتعلم قوانين فيزيولوجيا الاجساد وقوانين تطور الحيوانات ، من خلال الدراسة الموضوعية لما هو قائم وموجود بشكل مستقل عن الوعي ، عبر مسيرة للتطور تخطو فيها النظرية خطوة خطوة يدا بيد مع الممارسة ، وكل حقيقة تجري ملاحظتها في اية من المراحل ينبغي لها ان تعدل النظرية · كيف يمكن ، حتى لاكثر الدراسات دقة وتفصيلية لسجلات فعاليات ونشاطات الوف ، ان تكون ذات قيمة ، في حال غياب نظرية عامة تشمل نشاطات كل الناس وفعالياتهم بصورة عامة ؟

ان التاريخ تطور ، انه تغير ، ولا يسعنا بعد الان ان نتوقع امكانية استخلاص التأثير الضاغط والوجود الحقيقيين لهذه الحضارة او تلك من لغتها وموجوداتها المادية ، في اية من مراحلها ، اكثر من توقعنا لان يغدو انسان عار لندنيا عصريا من خلال تركه في مدينة لندن مهجورة تماما · كل الصفات الاجتماعية مستمدة من المجتمع في حالة حركته ،

ونحن حين نرث رأس المال ثم نحوله ، لا نستطيع ان نفهم المنتجات المجمدة لكل مرحلة – اي سجلاتها – دون الاحاطة بعملية الاستقلاب ★ التي قام بها المجتمع حتى استطاع ان ينتجها · ونحن حين نغفل ذلك انما نسارع الى اعادة خلق مظهر وسلوك الحيوان المتحجر من عظامه دون دراســـة العضويات التي تعيش اليوم ·

بطبيعة الحال تؤدي عمليات التراكم المتسكعة للتفاصيل الصغيرة غير المترابطة ، التي هي التاريخ البرجوازي اليوم، الى حصول محاولات تهدف الى بلوغ نوع من التنظيم · غير ان هذه المحاولات تتناقض مع الوضعية الاساسية للنظرة . وينبغي لها ان تهرب بصورة غير شرعية · وهـــي – اي المحاولات – مقصورة ، بالضرورة ، على ميادين محددة : فهذا المؤرخ سيقوم تفسير التاريخ المصري كنتاج للشروط التي يفرضها النيل ، وذاك سيسعى الى تفسير أفول نجـــم اليونان بالاستناد الى وباء الملاريا · ومؤرخ ثالث لن يتردد حول تفسير تاريخ البرجوازية على انه نشوء ونمو فكـــرة الحرية · وسيأتي مؤرخ رابع ليفسر لنا تاريخ العصـــر الوسيط بوصفه دليل انتصار المفاهيم المسيحية – الرومانية حول النظام · ومؤرخ خامس لن يتورع عن تفسير تطـــور الجنس البشري باعتباره نتيجة لنقص المعادن · ومؤرخ سادس سيقوم بتفسير انحلال الثقافة الهيليو ليتيكية بجاذبية مناجم الذهب · وسنجد مؤرخا سابعا يفسر نمو الاقتصاد الرأسمالي بجلب الملايين من اميركا الجنوبية ، وهكـــــذا الى ما لا نهاية ! فعندما يجد المؤرخ نفسه في مواجهة مهمة تفسير كل عالم الثقافة ، لا يتردد في الجمع بين سائـــــر التفسيرات الفرويدية والسلوكية والاسهابيـــــة والمرضية

★ الاستقلاب Metaloism

والمثالية والمادية ، رغم ان منطلقات هذه التفاسير متناقضة اشد التناقض · وكيف يمكن لمثل ذلك الخليط ان يعطي لنفسه اسم التاريخ ، اذا كان هذا التاريخ يعني رواية سببية ، او علمية ما ، لفعاليات الناس ونشاطاتهم عبر الزمن ؟

ولكن التاريخ كعلم ، هو التاريخ في الوقت الحاضر · انه علم يقتطع الماضي كما تم حفظه في الحاضر · فما من احد يستطيع التعرف على الماضي بصورة مباشرة · غير ان عملية فصل الماضي عن الحاضر هذه ، هي في الحقيقة وظيفة كل العلوم ، لانه ، طالما ان للكون تاريخا ، لا بد للعلوم كلها من تولي مهمة فهم كيفية بداية الاشياء ، ونشوئها ، وتعرضها للتحديد من قبل ماضيها في كل مرحلة من مراحلها · فكما ان اساس البيولوجيا هو التطور والاستقلاب ، كذلك يكون اساس الفيزياء هو نظرية خلق الكون والحركة · ومع هذا ، فان لمثل هذه الدراسة لماضي ميدان الخصائص العائدة للعلم المعني ، هدفا رئيسيا واحدا ، ألا وهو الكشف عن قانون حركة جميع الخصائص المتضمنة فيه ، وعبورها من حالة العدم الى حالة الوجود وعودتها سيرتها الاولى ·

ولا يتم الكشف عن قانون الحركة هذا ، الا بغية تحقيق هدف بعينه ، فكما ان الكشف ، من خلال نظرية خلق الكون، عن اكثر قوانين الفيزياء شمولا ، ومن خلال الباليونتولوجيا (علم الاحاثة) عن اكثر قوانين الحياة شمولا ، قد علم الانسان : بنية الفيزياء ــ الان ، والحياة ــ الان · كذلك يؤدي الكشف ، من خلال التاريخ ، عن اكثر قوانين المجتمع شمولا ، الى تعليم الانسان بنية المجتمع ــ الان · ولكن الامر لا يتوقف عند هذا الحد · فهناك عبور ، لا الى الماضي من الحاضر فقط ، بل عبور اخر معاكس من الماضي الى

الحاضر · ان معرفتنا في الفيزيولوجيا ، وعلم الاجنة ، مستمدة من الباليونتولوجيا (علم الاحاثة) ، غير اننا وقد تسلحنا بالمعرفة المستمدة من الفيزيولوجيا نعود بعد ذلك ، بفهم جديد ، لنعيد الكرة مع تلك المخلفات المتبقية عن الماضي ، التي كانت نقطة الانطلاق بالنسبة لابحاثنا · وهذه ليست مجرد حركة ديالكتيكية **للنظرية** · فالنظرية لا تتطور الا ، لانها في كل مرحلة من مراحلها ، تتجلى في اشكال جديدة من الاختبار والتنبؤ : ان البيولوجيا (علم الحياة) يتطور من خلال اجراء التجارب على العضويات ، وعبر التنبؤ عن مكان المستحاثات والبقايا التطورية ، التي ينبغي التفتيش عنها ، وعن الاشياء التي يجب ان يتركز عليها البحث · وهكذا ينمو علم البيولوجيا ويكبر · اما علم الفيزياء فيتطور من خلال التجارب مع الجسور والمحركات، ومن خلال التنبؤ عما يجب البحث عنه في مجال المكان · ان اي علم هو ، باستمرار ، هذا الفصل للماضي عن الحاضر، ذلك الماضي ، الذي يكون مختلفا ، لانه محفوظ في اطار الحاضر ، والذي ينجب تناقضا ديالكتيكيا يولد المستقبل · وليس هذا الا مجرد انعكاس في النظرية لما يحدث في الواقع ، حيث يكون الماضي ايضا محفوظا ، بفضل قوانين الحفظ ، في الحاضر ، وينتج ، بنوع من الحدة المستقطبة ، الجديد ·

ولكن السيرورتين : النظرية والموضوعية ، لا تجريان « على خطين متوازين » · ان العمليتين تتداخلان ، لان السيرورة النظرية ليست الا انعكاسا للسيرورة الموضوعية، وهي تبدو ، في كل مرحلة من المراحل ، انها نتيجة لحركة مادية محددة · ان النظرية معرضة ، لان تتعدل بشكل دائم ، نتيجة لهذه العملية التطبيقية الموضوعية او تلك من التفاعل · ولهذا يبدو التاريخ اكثر العلوم حيوية ونشاطا في هذا المجال ، فهو العلم المتخصص بدراسة حركة المجتمع

بالذات · هذه الحركة التي تنجب كل العلوم الاخرى بالاضافة اليه هو ·

ولذا لا يستطيع التاريخ ، هو الاخر ، ان يتهرب من منهج جميع العلوم الاخرى وحياتها ، الا وهي فصل الماضي عن الحاضر بالطريقة الممكنة الوحيدة للقيام بمثل هذا الفصل ، كتناقض ، وكنفي يجري تركيبه (جمعه Synthesised في المستقبل · فان الماضي بالنسبة للتاريخ هو كل ما ليس موجودا ، كل ما ليس في الحاضر ، ومع ذلك ، فنحن ندرسه الان في الحاضر · الا اننا ، نحن الذين لم نكن نعي هذا الماضي من قبل ، نصبح الان واعينه ، فنحن لسنا ما كناه ، اننا تغيرنا ، لقد حدث شيء جديد · ان الحاضر ، الان ، هو شيء جديد · انه المستقبل · وهذا كله ليس استعراضا نظريا · انه يحدث في ميدان الفعل والفكر على حد سواء · ذلك هو ما نقصده حينما نتحدث عن : « الفصل ، بوصفه نفيا للماضي عن الحاضر ، **لا بد له من ان ينجب نفي النفي**، اي « الماضي كما يراه الحاضر » ، الذي هو المستقبل » :

ليست العملية تأملية ، انها مفعمة بالحيوية والنشاط · فالتغيير لا يمكن ان يكون تغييرا حقيقيا الا اذا كان الوعي بعيدا عن ان يكون مجرد ألوان زائفة وسراب ، الا اذا كان وعيا ذا كيان حقيقي ، كيان يحدد وهو محدد · ان الوعي في حقيقته ، في تحققه الفعال والكامل ، هو كيان محدد حقيقي · وما من وعي جديد (معرفة ، او نظرية او نتيجة تركيبية جديدة) يمكن ان ينشأ الا نتيجة لفعل ما ، لتجربة بعينها ، لصلة محددة مع الواقع تنفي الوعي القائم وبنتيجة هذه الازمة الحادة يتم انتاج الوعي الجديد ـ النظرية او النتيجة التركيبية و منظومة المعرفة الجديدة · هذا هو منهج الاحساس الفردي ، اما عند معالجة مقولات الاحساس

النافذة اجتماعيا ، والمنظمة بصورة عامة ، فان هذا المنهج يصبح منهجا علميا ·

وهذا المنهج هو الذي ينبغي ان يطبق على التاريخ ايضا · فالتاريخ لا يستطيع ان يمسك بالماضي عن طريق المناولة الربانية (١) · فهو فقط يستطيع ان يمسك بالحاضر في الماضي · انه لا يستطيع ان يستخلص نظرية من الحاضر من خلال عملية تأمل غير محددة ، وذات اتجاه واحد · بل ما من طريق امامه ليفعل ذلك الا طريق اختبار نظرياته التاريخية ، في كل من مراحله ، على محك الواقع العملي والممارسة · ان نظرياته التاريخية هذه ، هي بالضبط صياغاته الواعية لمصير الانسان ، وهدفه ، ودوره · فالتاريخ ما هو الا تحليل جميع الاحكام والبيانات الصادرة عن الانسان عبر قوانينه ، واخلاقه ، وفنونه ، وديانته ، وعلومه ، وآماله · وهو يضع هذا التحليل موضع التطبيق من خلال العيش بموجبها ، ام من خلال نفيها حينا ، وتعديلها حينا اخر · ومن هنا ، فان علم التاريخ هو جزء من النشاط العملي للعيش وفقا للوعي الاجتماعي العائد لهذا العصر او ذاك ، او للتمرد على هذا الوعي ، من حين الى اخر ، لبلوغ هدف تعديله · وفي الحقيقة ، لا بد للامر من ان يكون هكذا فاذا كان التاريخ يعالج جميع فعاليات الانسان ـ كراهيته ، وحبه ، وآماله ، جنبا الى جنب مع قيامه بالبناء ، وتناول الطعام ـ يكون من المستحيل فصله عن حبه ، وكرهه ، وبنائه ، وتناوله الغذاء الان : اذا كان التاريخ هو نظرية كيفية قيامه بهذه الافعال في الماضي ، فانه لا يستطيع تجاهل النظرية التي تبحث في كيفية قيامه بها في الوقت الحاضر ، وبما ان العلم ، في كل مرحلة من مراحله ، يعبر الى ميدان الممارسة

---

(١) طقس « المناولة » في المسيحية وهو تقديم الخبز المقدس للمصلين ·

والتطبيق ، فانه لا يستطيع ان يتجاهل امر تثبيت ، ام تحويل وتعديل هذه الفعاليات، الان ٠



ليس هذا منهج الاحساس والعلم فقط ، بل هو المنهج العام لحياة الانسان ٠ فحين يبدأ الانسان ان يسأل في اي من العصور النظرية المعاصرة للعلاقات الاجتماعية المتضمنة في كل من فنونه وعلومه ، وقوانينه واخلاقه ونظامه الخاص بالتوزيع الاجتماعي ومرتبته الاجتماعية وحقوقه ، عندئذ يكون قد اكتشف أن تجربته العملية قد برهنت على وجود النواقص او « الاخطاء » في النظام الايديولوجي ككل ، ام جزئيا ، الا ان هذا يكون ايضا دليلا ـ شريطة أخذه بوقائع تجربته التي تكشف هشاشة هذه البنية الفوقية بالذات ـ على انه يشكل الخطوط العريضة للبنية الفوقية الجديدة ، التي ستكون اكثر كفاءة في التعبير عن وجوده الحقيقي الملموس٠ وعندما يتم انجاز عملية التحول ، ينتقل كل من الوجود والتفكير الى مستوى جديد ، وهما يتحولان معا من خلال تعاملهما ، ومستعدان لان يطرأ عليهما تطور جديد ٠

تلك هي العملية ، التي تفسر **تطور** المجتمع ، اذن ٠ والعامل الاولي هو الوجود الملموس : اي الانتاج الفعلي ، الذي ينخرط الناس فيه بوعي وارادة ، أقل ام اكثر ، ولكنه في جملته يكون لا شعوريا ، لا واعيا ٠ انها عملية تطور التكنيك ـ جماعة مترابطة من الناس وهم يقومون بتغيير الطبيعة مع التكشف التدريجي لضرورات هذه الطبيعة في صلاتها المتبادلة مع التكنيك ، بحيث كل منهما يعكس الاخر. ومع ذلك يتعرض الطرفان للتغيير كل منهما من اجل الاخر٠ هذه هي القاعدة العريضة للمجتمع ، فكما ان الانسان قد يكتفي بتناول الطعام ، او قد يأكل ويفكر ، ولكنه لا يستطيع

ان يقتصر على التفكير وحده ، كذلك تماما نجد هذا التكنيك المتطور ، مع كل مظاهر تقسيم العمل ، وحدة التمايز ، وزيادة تعقد ما ينتجه ، غير واع تماما ، وعلى اي حال غير واع برأس واحد ، بل مترافق من جهة اولى بشبكة معقدة من الرغائب والامال والافكار غير المترابطة ، التي تولد وتموت في رؤوس الافراد ، ومن جهة ثانية بجملة من الرغبات والامال والافكار المشتركة ، التي تعيش على شكل اللغة ، والمنظومات العلمية ، والاثار الفنية . والتقاليد . والاعراف ، والقوانين ، والاخلاق · ان التخلي عن هذه المنتجات الثانوية يمارس بدوره تأثيرا اخيرا على الكل ، ولكن لا يكون هناك اي شك حول ايها يأتي اولا ·

لان القوانين والعلوم واللغات والفنون ونظم التوزيع والقيم الاخلاقية وكل العلاقات الاجتماعية والتنظيمات المراتبية المرتبطة بها هما الاكثر تعميما والاكثر اجتماعية والاكثر حداثة والاكثر بعدا عن الطبيعة من بين مختلف المنتجات الاقتصادية ، فانها تشكل البنية الفوقية او القسم الاكثر تجريدا من التاريخ · فهي تؤلف نظرية الحياة الانسانية ووعي المجتمع والورود المرئية للنشاط ، ولكنها تنبثق من اناس نشطاء ، عاملين متنفسين ، ممتلئين حياة ، وتتغذى منهم ، وتشكل جانبا جديدا من جوانبهم · واذا واجه الناس ، خلال تعاملهم مع الطبيعة ، وهم يعيشون فعلا كبشر في الطبيعة والمجتمع ، حقيقة موضوعية تتناقض مع هذه النظرية الاجتماعية للحياة ، فلا بد من نشوء تأزم كفيل بان يؤدي في النهاية الى احداث التعديل المطلوب في البنية الفوقية · اضف الى ذلك انه نظرا الى ان البنية الفوقية ، التي نتحدث عنها ، هي بنية فوقية اجتماعية او مشتركة ، فان الحقائق الوحيدة القادرة على احداث مثل ذلك التعديل، هي الحقائق المؤهلة لان تكون حقائق اجتماعية ، حقائق ذات

ارتباط بعلاقة الانسان بوصفه انسانا مرتبطا مع الواقع الخارجي · ويمكننا ان نقول ، اذا اردنا . ان التعديلات الطفيفة على التكنيك تؤدي في النهاية الى التأثير على كل البنية الفوقية · او نستطيع ان نقول بتفصيل اكثر ان الناس المترابطين والمتعاملين تعاملا مباشرا مع الطبيعة هم الذين يكتشفون نقاط عدم التطابق بين النظرية والتطبيق ، وبالتالي يتم تبعا لذلك تعديل التفاصيل النظرية مباشرة ـ (التحسينات التكنولوجية) ـ ومع تراكم نقاط الاختلاف ، وعدم التطابق الثانوية فان النظريات الاكثر عمومية ، او « الاجتماعية » في المدى تتعرض لتلقي التأثير ، حتى يتم في نهاية الامر تعديل البنية الفوقية ككل · ـ (التطور الايديولوجي) ·

هذه هي النظرية التطورية حول المجتمع ، النظرية التي تصلح بالنسبة لاي مجتمع في صراع حياتي مع الطبيعة ، يتصف بأي حد من الوعي · غير ان الاثنين هما الشيء نفسه ، لان الانسان الواعي هو الانسان المنتج اجتماعيا · لذا فان هذه النظرية هي النظرية الاساسية بالنسبة للمجتمع البشري · انها القانون الاساسي الذي يحكم حركة التاريخ ، وتخضع له كل نظريات البشر ونشاطاتهم · وبالضرورة ، لانها نظرية علمية ، ترى التاريخ وهو ما يزال يصنع الان ، ولان النظريات والنشاطات المعاصرة لكل الناس ما هي الا اجزاء من علم التاريخ · فالتاريخ لا يستطيع ان يهتدي الى الماضي النظري الا من خلال الحاضر النظري ، ولا يستطيع ان يطور هذا الحاضر النظري الا عن طريق كونه فعالا ونشيطا ، وبالتالي منتجا المستقبل الحقيقي ·

لقد اكتشف ماركس في نظرية التطور الثورة ايضا · فقد وجد انه كانت هناك فترات شهدت تدمير كل البنية الفوقية ، كما لو بالمتفجرات ، وتعديلها بسرعة ، كحقيقة موضوعية معروفة جيدا ، بدلا من تعرض تلك البنية الفوقية

للتعديل البطيء عبر النشاط اليومي للناس من خـــلال الاضافات البسيطة والصغيرة وبشكل تدريجي على الدوام. وفي مثل تلك الحالات كانت القوانين والعلوم والفنون والحقوق ونظم التوزيع جميعا تتعرض لعملية تفجير هائلة واحدة تستمر قرنا او اثنين من الزمن ، مثل الفلم البطيء الــذي يصور قنبلة متفجرة .

لا يمكن لذلك ان يعني الا شيئا واحدا ، ملخصه هو : ان سببا من الاسباب يحدث صدعا بين البنية الفوقية (النظرية) من جهة وبين القاعدة (الممارسة التطبيقية) من جهة ثانية ، حتى تصبح الاخيرة ، اي الممارسة ، عاجزة عن متابعة تعديل الاولى ، اي النظرية ، بشكل مستمر . ونتيجة لذلك نمت التناقضات ، وتعاظمت ، واصبحت حدة الازمة في النهاية على درجة من الرهبة بحيث أدى الانفجار الناتج عنها ، الى تحطيم معظم اجزاء البنية الفوقية القديمة . ولعل الثورة البرجوازية ، التي دشنت « العصر الحديث » ، تقدم مثالا واضحا .

غير ان ماركس طرح سؤالا حول الاسباب الموجبـــة للثورة ، وحول الاسباب الكامنة وراء تلك الدرجة العالية من الجمود ، الذي يظهر على البنية الفوقية ، والذي يسمح بنشوء تناقض متفجر في بنيان المجتمع .

وقد كانت اجابته واحدة من اكثر الاطروحات الكاشفة ، التي تمت صياغتها . **ليس التناقض نفسه الا انعكاسا فـي الساحة الايديولوجية لانقسام اساسي في الانتاج ، وهـذا الانقسام يجري التعبير عنه ، في ميدان العلاقات الاجتماعية، بالطبقتين المعادية احداهما للاخرى ، احداهما هي الطبقة الواعية المفكرةوالموجهة،وهيلذلكالطبقة الحاكمة،والثانية هي الطبقة اللاواعية ، النشيطة ، المدارة ، وبالتالي المحكومة .**

ولهذا فان التناقض ، والعداء بين البنية الفوقية الواعية والتكنيك الفعال ، هو تناقض او عداء يعكس انقسام انتاج المجتمع الاقتصادي وتمزقه · ان احدى الطبقتين تدير الانتاج الاقتصادي بوعي ، وهي اذ تفعل ذلك ، قادرة على توجيه تدفق كتلة المنتجات الاقتصادية للمجتمع نحو حياتها هي · اما الطبقة الثانية فليس لها الا ان تخضع للتوجيه ، وترزح تحت وطأة الاستغلال · والطبقة الاولى ، اي الطبقة الادارية الواعية ، هي الطبقة التي تتولى انتاج وعي المجتمع : ان **البنية الفوقية هي من نتاج الطبقة المستغلة** (بكسر الغين) ·

ولكن الطبقة المستغلة (بفتح الغين) هي التي تتولى القيام بالعمل الفعلي · فهي الطبقة التي تكون على صلة مباشرة مع الطبيعة · الطبقة التي تتعامل مع القوى المنتجة في المجتمع · اما الطبقة الحاكمة فلم تظهر الى الوجود في الاساس الا لان اعضاءها كانوا يؤدون وظيفة مفيدة اجتماعيا · فمن خلال توجيههم للعمل كانوا يزيدون من الكفاءة الانتاجية للمجتمع ككل · ولذلك فان المراحل الاولى لمثل هذا المجتمع الطبقي تشهد زيادة في القوى المنتجة نتيجة للبنية الطبقية الجديدة ، مما يؤدي الى ان يشهد المجتمع ازدهارا ذا شأن ·

غير ان تطور المجتمع يؤدي الى احداث تطور مماثل في التناقض والعداء الطبقيين · فتبدأ الهوة الفاصلة بين التفكير والفعل ، بين المستغلين والمستغلين تتسع · تخلق النظرية منفصلة عن ارض الممارسة · وتغدو الطبقة العاملة قليلة الوظائف اكثر فأكثر · التصبح طفيلية تأملية ومثالية (خيالية) اكثر فأكثر · في حين تتحول الطبقة المستغلة الى الجماعة الوحيدة المشرفة والمسيطرة على قوى الانتاج في المجتمع ، في الوقت نفسه الذي يصبحون فيه أبعد فأبعد عن منتوجات تلك القوى · ان القوى المنتجة تشير ، وهي

تتطور ، الى زيادة القوة التقنية للانسان ، والى خبرته العملية المتنامية ازاء الواقع ، غير انها ـ اي القوى المنتجة لكونها تشكل مملكة المستغلين (بفتح الغين) ، ولان النظرية او البنية الفوقية هي من خلق الطبقة المستغلة (بكسر الغين) وابداعها ، فان الذي يحدث يقتصر على بذر المزيد من بذور التناقض والعداء بين النظرية والممارسة ، كما يتجلى بوضوح في المزيد من الطلاق بين مهن الانسان وبين الواقع، وبين الاطر الخارجية للمجتمع وبين محتواه الحقيقي والصحيح • هناك مزيد من الاستغلال ، استفحال للدور الطفيلي الذي تلعبه الطبقة المستغلة (بكسر الغين) ، وتناقض متعاظم بين ما يستطيع الانسان ان يفعله وبين ما يقوم به فعلا • ان الانسان يفكر باشياء رائعة وجميلة ، ويأتي اشياء كريهة ومقيتة • انه ، خاطىء ، (بالمعنى المسيحي) ، نذل ، ودنيء ، ومشوه ، في الوقت الذي تكون فيه افكاره بالغة السمو والرفعة •

لا يمكن لهذا العداء او التناقض الا ان يستمر في التطور ، لان كل نمو تشهده القوى المنتجة يفضح أمر اخطاء البنية الفوقية ، ويؤدي ، في الوقت نفسه ، الى احكام الطبقة غير المنتجة لقبضتها على تلك القوى أكثر فأكثر • ان عملية التحويل او التعديل ، التي تتعرض لها البنية الفوقية الان ، تتم من خلال ضرورات الحفاظ على الانقسام الطبقي ، الذي أنجبها في الاساس ، وهي تتحول الى قلعة طبقية وقاعدة للرجعية ، الى قاعدة للثورة المضادة وللفاشية ـ وبالتالي تؤدي الى زيادة حدة الصراع ومرارته • ثم تحدث الثورة عندما تتمرد الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ، الطبقة التي تشغل قوى الانتاج في المجتمع ، وتدمر كل البنية الفوقية ، التي شلتها وعطلتها •

ولا يكون هذا التمرد تدميرا اعمى • فالطبقة المستغلة

الممسكة بزمام القوى المنتجة قد تعلمت ، من خلال تطويرها لتلك القوى بالذات ، التكنيك الجديد الذي ينفي ويلغي البنية الفوقية العائدة للطبقة المستغلة · ونظرا الى ان النظرية والممارسة كلاهما اصبحتا في يدين متناقضتين متعاديتين ، فان اي تطور تشهده القوى المنتجة لا يستطيع ان يؤدي الى تعديل البنية الفوقية بطريقة التطور البطيء ، بل ان هذه التطورات تتراكم حتى تكتسب قوتها الانفجارية · وفي الوقت الذي يصل فيه الوضع الثوري مرحلة النضج تكون هناك بنية فوقية كاملة جديدة كامنة في احشاء الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ، بنية فوقية تكونت من كل الذي تعلمه اعضاء هذه الطبقة من تطور القوى المنتجة ، وهذه تغدو نقطة الانطلاق لتشييد صرح البنية الفوقية العائدة للطبقة ، التي تمت الاطاحة بها · هذا هو الدور الخلاق للثورات · لقد اتضح بكثير من الجلاء في اثناء الثورة البرجوازية ، حيث قامت البرجوازية ، الطبقة المستغلة في المدن ، نتيجة لتطور القوى المنتجة في ظل الملكية الخاصة البرجوازية ، بالاطاحة بالنظام الاقطاعي مع بنيته الفوقية المرتكزة الى المراتبية والاصالة او النبالة ، واستبدلتها ببنية فوقية تستند الى الملكية الخاصة ·

ان الثورة البروليتارية هي عاقبة التناقضات المتزايدة بين البنية الفوقية البرجوازية من جهة وعمل البروليتاريا من الجهة الثانية ، وحين يبلغ مدى الشلل الناجم عن البنية الفوقية ازاء القوى المنتجة ـ كما يبرز في أزمات الكساد والفقر والحروب والبطالة ـ حدا لا يطاق ، فان الامور لا تقف عند حدود تمرد البروليتاريا ، بل ان التطورات التقنية ذاتها ، التي زادت انتاجيتها ـ التنظيم الاجتماعي للانتاج داخل الوحدة ـ تولد الايديولوجية الكفيلة بتغيير البنية الفوقية البروليتارية كانت موجودة بصيغتها الجنينية في ثوب

الماركسية او الاشتراكية العلمية ، قبل الثورة في روسيا بوقت طويل ، وهذا بالذات هو من نتاج تحليل ماركس للانتاج الرأسمالي · ففي هذا التحليل للتاريخ السابق للمجتمع في النظام الرأسمالي المعاصر ، رأى ماركس ان القوى المنتجة الجديدة جعلت أمر بلترة العمل امرا ممكنا ، ولا يمكن تحقيقه الا عن طريق الشيوعية ·

لقد كان ماركس قادرا على تبيان الاسباب الكامنة وراء انفصال البنية الفوقية عن القاعدة ، ووراء تمزق المجتمع الى نقيضين · ان هذه الاسباب تتركز في التصدع الطبقي وقد استطاع ماركس ان يبين ان هذه الطبقات لم تظهر الا من خلال تطور اشكال او انماط محددة من الانتاج ـ طبقة العبيد مع الانتاج الزراعي ، الطبقة البرجوازية مع الانتاج الاقطاعي ، والطبقة العاملة (البروليتاريا) مع الانتاج الرأسمالي · كما استطاع ان يوضح كيف ان عملية تحويل البنية الفوقية المترافقة مع الثورة لم تكن تدميرا اعتباطيا ، بل كانت نوعا من تحقيق امكانيات موجودة ، ولو بصورة كامنة ، في الممارسة ، في اطار علاقات اجتماعية جديدة ·

ان التحليل نفسه يقدم الاجابة المطلوبة على سؤالنا الاصلي ، ألا وهو : لماذا تعجز العلوم البرجوازية ، رغم كل انجازاتها ، عن خلق ايديولوجية تركيبية Synhetic بل وتؤدي ، من خلال تطورها بالذات ، الى انحلال الثقافة البرجوازية وتفسخها · تكون العلوم على صلة تجريبية ، بصورة نهائية وقصوى ، مع الواقع ، ان لها قاعدة تقنية وعملية · وهذا هو الذي يميز العلم عن النظرية المجردة · فتلك القاعدة العملية هي الجبهة ، التي يتقدم عليها العلم ، والمادة الجديدة التي يلتقي بها ، وتعترض سبيل تقدمه ، لا بد لها من الرحيل صعودا نحو البنية الفوقية التي تتولى

تعديلها · غير ان البنية الفوقية او « النظرة الكلية » لهذه الثقافة او تلك ما هي ، كما رأينا ، الا من خلق طبقة حاكمة تغدو معزولة ، وفي طلاق اكثر فأكثر من الممارسة العملية ، وتزداد غرقا مع مرور الزمن في الاوهام الذاتية الخادعة وفي بطالة انعدام الوظيفة · لذا ينشأ تناقض او عداء بين هذه الايديولوجية المركزية من جهة وبين الجبهة العملية المتقدمة للعلم من جهة ثانية · مثل هذا التناقض يؤدي الى شلل وتشويه كبيرين في العلم يتناسبان طردا مع صيرورته عامة وشاملة ، ويقترب من اعطاء صياغات نظرية عريضة · وكنتيجة لهذه الحرب ، يتعرض العلم للكبح او الردع من قبل الايديولوجية المركزية مما يجعله يجمع قواه حول اكثر جبهاته عملية ، حتى تتحول هذه الجبهات الى عوالم مغلقة ـ الى علوم معزولة ومنفصلة · وهذا يؤدي الى نتيجة أبعد . ألا وهي عملية فصل النظرة الكونية عن العلوم ، مع ما يترتب عليها من عاقبة الانهيار والتحلل ، ومن افقار العلوم التي غدت الان معزولة منفصلة ·

بما ان الطبقات ليست مخلوقات اعتباطية مطلقة ، بل تظهر الى الوجود بوصفها تطورات محددة في الاقتصاد . فانها بعيدة كل البعد عن ان تكون حتمية · فعلاقة الاستغلال ليست اساسية بالنسبة للمجتمع ، وقد اوضح ماركس ان البروليتاريا لم تشغل موقعها التاريخي الخاص ، في الحقيقة ، الا لانها الطبقة التي كتب لها ان تضع حدا للطبقات ، ان تلغي كل الطبقات بما في ذلك الغاؤها لنفسها كطبقة ·

ولان البرجوازية ، بعد نزع ملكيتها ، تفقد مركزها الاجتماعي ، لا بد لها من ان تتوقف عن الوجود ، وعندئذ يتلاشى محتوى القهر لبنية الدولة الفوقية · لا تبقى الا طبقة واحدة ـ ذلك يعني انعدام وجود الطبقات ـ وهذه

الطبقة الواحدة تتولى عمليتي ملكية القوى المنتجة في المجتمع وتشغيلها على حد سواء · وهذا لا يعود يسمح بوجود اي تصدع اساسي بين النظرية والممارسة ، بل ان الطرفين يستطيعان الان ان يؤثر احدهما في الاخر بصورة مباشرة وبسرعة ، وكل تجديد في الممارسة يمكنه فورا ان يؤثر على البنية الفوقية ·

ان مثل هذا الفهم والاحاطة بالتاريخ لم يكشف فقط عن القانون الاساسي لحركة البشر الاجتماعية بل وقد اعاد التاريخ ايضا ليحتل مكانه كعلم بين سائر العلوم ، اي علم تكون الممارسة فيه حليفة للنظرية **والعكس بالعكس** · ان اعادة فصل التاريخ ، الذي هو قمة العلوم ، عن النشاط الاجتماعي مستحيلة قدر استحالة فصل علم الكيمياء عن التجارب المخبرية ، وقدر استحالة فصل نظرية خلق الكون عن التجارب الفيزيائية · وعندئذ يصبح التاريخ لا مجرد دراسة النقوش والكتابات والسجلات ومختلف الشهادات . وسيلة للاجابة على اسئلة كانت في الايام الغابرة تتم صياغتها صياغات رمزية مثل : « ما هو واجبي ازاء جيراني ؟ » ، « ما هو مصير الانسان ؟ » ، « لماذا تكون الحقيقة مستقلة عني ؟ » ، « ما قيمة الجمال ؟ » ، « ما الذي يجب علي ان افعله حتى انقذ نفسي ؟ » ، « هل الشر واقع ؟ » · ان التاريخ يصبح دليلا للمستقبل ، لانه بالذات يجسد دراسة الماضي في الحاضر ، فبما ان تاريخ المستقبل لا يتم صنعه الا بالافعال الحاضرة للناس ، وهم يحققون ذواتهم ، فان مثل هذا التاريخ لا بد له ، بالضرورة ، من ان يكون دليلا للعمل الان · وكل من مثل هذه الافعال يؤدي ايضا ، من خلال اقرار ، او تعديل ، او اغناء محتوى علم التاريخ ، الى زيادة قوة اختراقه وتوغله في التحليلات

الجارية للماضي ، ويمكنه ، بمزيد من النجاح ، من فصل الماضي عن الحاضر الذي تنطوي احشاؤه على ذلك الماضي ·

وهكذا نجد ان ماركس وانجلس لم يقوما فقط بتفسير حركة التاريخ ، بل قاما ايضا بجعل التاريخ واقعيا وعلميا من خلال جعله دليلا لعمل الانسان فيما يخص المجتمع اليوم · ولاننا نعيش ، في عالم برجوازي ، في وقت تقوم فيه البنية الفوقية للطبقة البرجوازية بشل القوى المنتجة وتعطيلها عن القيام بالعمل المنظم ، فان المادية التاريخية هي دليل عملنا ، اي فعلنا الهادف الى تغيير هذه البنية الفوقية ، والمساهم في الثورة البروليتارية· بالطبع هذه السمة بالذات في الماركسية هي التي تفضح البرجوازية ـ اي انها علم تاريخي ، وبالتالي مفعم بالحرارة والحياة · ليست المادية التاريخية مجرد تجميع لا حياة فيه للمعارف عن الماضي ، كما لو كان الماضي شيئا منفصلا عن الحاضر وخارجه ، او كما لو كانت النشاطات الاجتماعية لكل الناس ، الذين كانوا قبلنا ، غريبة تماما عنا وخارجنا ، بدلا من كونها قوى في حركة ، نشكل نحن قمتها وذروتها الانية في اللحظة الحالية · انها المادية التاريخية ـ الماضي فاعلا في الحاضر ومساعدا الانسان بنشاط حتى ينتج المستقبل ·

طبـــع على مطابع الكفاح
بيروت ـ تلفون : ٢٤٩٠٣٠

هذه السلسلة

هذه السلسلة تصدرها دار الفارابي متوخية مراعاة الكثير من المستجدات الطارئة على مجال الاعلام والثقافة والعلاقة بينهما . فمن الطبيعي أن الدراسات الموجزة والمنشورة في دفتر صغير نسبيا تمثل فائدة جمة للكثيرين من الباحثين عن الثقافة والذين ، لسبب او لآخر ، لا يستطيعون متابعة الدراسات الاكاديمية الضخمة حول كافة المواضيع التي تهمهم ، او انهم يفضلون ان يرفقوا دراستهم للمراجع الاساسية ببعض الدراسات القصيرة التي تشكل مقدمة جيدة للتعمق في موضوع ما .

وتشكل هذه الدفاتر محاولة للاطلال على مواضيع متعددة وشيقة ، تدخل كلها في الاطار العام للعلوم الاجتماعية . علما بان اطار هذه العلوم يتسع بقدر ما تزداد قناعة المرء بان العامل الاجتماعي ، بالمعنى الاوسع للكلمة ، هو العامل الحاسم في مجالات اكثر بكثير مما كان يظن ... قبل ماركس .

كما ان الدراسات الواردة في هذه الدفاتر والتي نختارها ونعربها من بين المقالات التي تنشرها مجلة « العلوم الاجتماعية » او غيرها من المجلات التي تعنى بشؤون العلوم الاجتماعية ، والتي تصدر عن اكاديمية العلوم السوفياتية تتخذ في غالبيتها طابع النقاش والمساهمة في الصراع الايديولوجي الجاري على صعيد عالمي . وفي هذا الاطار قد يكون فيها فائدة ليس فقط لطلاب الجامعات والمثقفين عموما ، بل لكافة المناضلين ايضا .

Mouyn

الثمن ٣٠٠ ق. ل.